

تاريخ ما أهمله التاريخ

تحت سماء المغرب

بقلم

حبيب جاماتي







تحت سماء المغرب

تاريخ ما أهمله التاريخ

بقلم : حبيب جاماتي



الى المجاهدين الأحيـــاء في بلدان المغرب العربي ، لـكي يذكروا المجاهدين الأموات ، الذين حرروا الأوطان الصغيرة في هذا الجزء من الوطن الكبير ، وصانوا كرامتها ، ودفعوا عنهـا الأذى ، واخلصوا لهـا في السراء والضراء ، وكانوا نبــلاء شرفاء في حياتهم الخاصة والعـامة ، أهدي هذه المجموعة من اقاصيص البطولة والفـــداء ، والحب والوفاء ، المستقاة من هوامش التاريخ قديمه وحديثه .

ح . ج

تصدير

عن « الدار القومية للطباعة والنشر » صدرت حتى الآن عشر حلقات من « تاريخ ما أهمله التاريخ » وهذه هى الحلقة الحادية عشرة أقدمها للقارىء بعنوان : « تحت سماء المغرب » لأنها تضم مجموعة من الأقاصيص التى وقعت حوادثها فى البلاد العربية الغربية : المغرب الأقصى أو مراكش ، والجزائر ، وتونس ـ أو القطر المغربى والقطر الجزائرى والقطر التونسى ـ كما كان يحلو للعرب أن يسموا تلك الجهات التى التحقت بامبراطوريتهم المترامية الاطراف ٠

ففى هذا الكتاب اذن عشرون قصة وقعت حوادثها فى المغرب العربى ، وفى حقبات مختلفة من التاريخ القديم والحديث ، أى قبل الميلاد وبعده ، وقبل الفتح الاسلامى وبعده ،

وتاريخ المغرب العربى عريق مجيد ، ولشعوبه مواقف مشرفة على كر الاجيال ، فى جميع الميادين والمجالات ٠ وفى هذه الأقاصيص التى يضمها كتاب « تحت سماء المغرب » بين دفتيه ، حوادث مما أهمله التاريخ ، فى عهود تغير فى خلالها الحكام وتطورت الشعوب ٠ فقديما « عرف الشمال الافريقى غزو جماعات جائرة من الشرق برا أو من الشمال بحرا » ٠ وتركت كل جماعة منها فى البلاد التى غزتها أثرا من حضارتها ، أو رواسب من ثقافتها ، حتى جاء الفتح الاسلامى العربى ، فصهرت كل الحضارات فى بوتقة حضارته وأفرغت كل الثقافات فى قالب ثقافته ٠ وحدث فى تلك البقاع ذلك الامتزاج العجيب الذى لم يذكر التاريخ مثيلا له فى صفحاته ، الا فيما يتعلق بالعرب الغزاة الفاتحين ، وبالنسبة الى الشعوب التى دخلت فى طاعتهم ، أو

انضمت اليهم بدون حرب ولا قتال ، فما مرت الأيام والأعوام ، حتى كان كل عنصر غريب قد ذاب فى العنصر العربى ، وحتى كانت البلدان المغربية كلها قد اكتسبت ذلك الوجه العربى الواضح الناصع، الذى عرفت به فيما بعد وحتى أيامنا هذه، والذى بقى محتفظا برونقه ، وخصائصه ، وخواصه ، وميزاته ، وحيوته ، بالرغم مما تعاقب على الشمال الافريقى من كوارث ومحن وتقلبات ، على أيدى حكام ضالين من ابنائه ، او طغاة مستبدين من الأغراب المستعمرين ...

واليوم ، وقد رفرفت أعلام الحرية وخفقت رايات الاستقلال فى فضاء الشـــمال الافريقى ، وهو ما درج العرب المشارقة والمغاربة على تسميته بالمغرب العربى ـ لأنه يقابل من الناحية الافريقيـة المشرق العربى الممتـد فى النـاحية الآسيوية ـ فان الشـعوب التى تحررت ونبـذت الخمـول والاستكانة ، وانطلقت فى ميادين الرقى والمعرفة تصـــول وتجول ، فان الحديث عن التاريخ ومادونه من وقائع الماضى البعيد والقريب، يثير فى النفس الشجون ، ويحيى فى الصدر الآمال ، ويقوى عزائم العـاملين فى سبيل حـــاضر جدير بذلك المـــاضى ، ومستقبل افضل من الحاضر والماضى .

وبصـــدور هـــذه الحلقة من أقاصيص « تاريخ ما اهمله التاريخ » بعنوان : « تحت سماء المغرب » تكون الدار القومية للطباعة والنشر قد أصدرت احدى عشرة حلقة هى كالآتى :

الحلقة الأولى : بطولات عربية

الحلقة الثانية : الناصر صلاح الدين

الحلقة الثالثة : مصر مقبرة الفاتحين

الحلقة الرابعة : أندلس العرب

الحلقة الخامسة : الجنة فى ظلال السيوف

الحلقة السادسة : مصر الأقدمين

الحلقة السابعة : بين جدران القصور

الحلقة الثامنة : على ضفاف النيل

الحلقة التاسعة : قياصرة وسلاطين

الحلقة العاشرة : غبار المعارك

وأملي أن تجد هذه المجمـــوعة الجديدة قبولا حســـنا لدى القارىء ، مثل سابقاتها ، والله ولي التوفيق ٠

حبيب جاماتي

زيتونة على قبر

••• وانتشرت زراعة الزيتون
وسميت البلاد بسببه « تونس
الخضراء» •

على الشرفة الفسيحة ، المطلة على الميناء ، جلس « أزوداس » كبير الكهنة فى هياكل « صور » وحوله أفراد أسرته جميعا : ابنته الكبيرة وزوجها ، وابنته الصغيرة التى لم تتخذ لها بعلا بعد ، وأخوه وأولاد أخيه ... أما زوجة الكاهن فقد ماتت يوم رأت ابنتها الصغيرة النور..

وكان الناظر الى الميناء من مكان مرتفع - مثل شرفة الدار التى يقيم فيها أزوداس وأسرته - يدرك لأول وهلة أن أسطولا من السفن المعدة للرحلات الطويلة على أهبة الابحار الى بعيد ، للاتصال باحدى المستعرات الفينيقية المنتشرة على سواحل البحار ، أو لانشاء مستعمرة جديدة فى مجاهل الارض .

وكان أزوداس ، من ناحيته ، قد أعد العدة للابحار على ظهر احدى سفن الاسطول ، مع ابنته الصغيرة « أسماتا » تلبية لدعوتين : دعوة الكهنة فى هياكل «قرطاجة» الموجهة اليه ، ودعوة القائد «براجليون» خطيب ابنته ، الموجهة الى الفتاة ...

ولم يكن فى وسع الاثنين أن يرفضا الدعوتين : فكبير كهنة «صور» كان الرئيس الأعلى للكهنة جميعا فى الهياكل التى شيدها الفينيقيون فى مستعمرتهم الجديدة قرطاجة على ساحل افريقية الشمالى . واذا كانوا يلحون عليه بالذهاب اليهم ، فما ذلك الا لانهم فى حاجة ماسة الى ارشاداته ونصائحه وثاقب أفكاره . أما هى ، الفتاة أسماتا ، فانها قد رضيت مختارة بأن تربط حياتها بحياة ذلك القائد الشاب براجليون ، الذى ارتقى بسرعة مدهشة مدارج الشهرة والمجد ، فى الحروب التى خاض غمارها . واذا كان يلح عليها بأن توافيه الى قرطاجة ، فما ذلك الا لأنه مضطر الى البقاء هناك ، حيث تدعوه المصلحة : مصلحته ومصلحة الوطن ...

كانت « اليسار » ملكة صور قد أبحرت مع أسطول لجب هاربة من فينيقية على أثر مأساة عائلية دموية ، فى القرن التاسع قبل الميلاد ، فتبعها عدد كبير من الأعوان والانصار ، ونزلت ساحل البحر المتوسط ، على مسافة بعيدة من الموانىء المصرية والليبية .

واعتزمت اليسار - التى يسميها اليونانيون « ديدون » - أن تنشىء فى ذلك الموضع مستعمرة جديدة ، ونفذت عزمها بلا ابطاء فنبتت من الارض ، على الرمال وبين الصخور ، مدينة أطلقت عليها الملكة الشريدة اسم « قارت هداتش » وهما كلمتان فينيقيتان معناهما « المدينة الجديدة »

وتداولت الألسنة هذا الاسم من بلد الى بلد جيلا بعد جيل ، فأصبح « قرطاجة » وهى المدينة التى قدر لها أن تهز الامبراطورية الرومانية هزا وتزعزع أركانها وتدفع بها فى وقت من الأوقات الى حافة الهاوية ، بعيادة هانيبال وأسرته • ولكن الرومانيين تمكنوا فى النهاية من تخريبها •

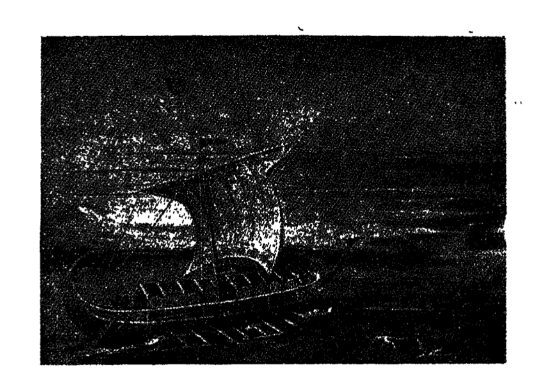
قامت المدينة العظيمة اذن على ذلك الساحل الافريقى ، وامتدت فيها الشوارع وانتظمت الدور والقصور ، وانتقلت الى قرطاجة عبادة آلهة فينيقية : بعل ، وملكارت ، وعشتروت ، وأدونيس • وانتقلت مع طقوس العبادة تقاليد الفينيقيين وعاداتهم وأساليبهم فى الحروب والغزوات والتجارة والصناعة والزراعة • وبعد أن زالت أسباب الجفاء الاولى بين مؤسسى قرطاجة والوطن الذى جاءوا منه ، توثقت الروابط بين المدينة الزاهرة وقواعد الفينيقيين على سواحل لبنان فى شرق البحر المتوسط •

وكان القرطاجيون ، الذين انصرفوا على الخصوص الى الاعمال والفنون الحربية يعتمدون على الوطن الاول فى كل مايتعلق بالشئون الدينية والتجارية •••

ومما كانوا يستوردون من فينيقية بكميات كبيرة ، زيت الزيتون ، الذى كانوا يحتاجون اليه لجيوشهم وهياكلهم فى آن واحد للقتال وللعبادة •

ولما أعد الكاهن الاكبر أزوداس نفسه للرحيل من صور الى قرطاجة كان عليه أن يسهر ، فى خلال رحلته ، على شحنة هائلة من زيت الزيتون أعدت خصيصا فى معاصر لبنان لتموين قرطاجة ومصانعها وهياكلها •

ولكن شيئا آخر كان يشغل فى آن واحد بال الكاهن ويحمله على التفكير : كان أزوداس شديد الاهتمام باتخاذ الحيطة لنفسه ، لكى يتمكن من المحافظة على العادة القديمة التى توارثها افراد أسرته أبا عن جد ، منذ ان وقفوا انفسهم لخدمة الآلهة فى المعابد • وتلك العادة أصبحت من التقاليد المقدسة لم يشذ عنها أحد من الكهنة الذين خرجوا من تلك الاسرة العريقة ••



سفينة من السفن الفينيقية التى جابت البحار

قال أزوداس :

ـ هذه آخر مرة يلتئم فيها شملنا فى مجلس واحد ، أيها الاعزاء ، قبل ان نفترق ـ وقد يكون الفراق أبديا لا لقاء بعده ـ غدا ، عند الفجر، سنبحر من هذا الميناء الى قرطاجة ، انا واسماتا • وقد زودتكم بوصاياى فأرجو ان تكونوا عليها امناء • واذكركم مرة أخرى بما أوصيتكم به بالحاح فيما يتعلق بأغراس الزيتون •

وهنا قال أخو ازوداس :

ـ أرسلت بنفسى ، أيهـا الأخ الحبيب عشرة أغراس من أجود أنواع الزيتون الى ظهر السفينة التى تقلك غدا ، وسأوافيك فى المستقبل بغيرها، كلما أقلعت سفينة الى قرطاجة •

فأجاب ازوداس مرتاحا :

ـ أشكرك يا أخى : فأنا حريص على أن تزرع شجرة زيتون على قبرى ، كيلا يختلف هـذا القبر فى شىء عن قبور من سبقونى الى العـالم

الآخر • من أفراد أسرتنا الكهنة • فقد غرست زيتونة على قبر كل منهم، بحيث أصبحوا الآن ينـامون نومهم الاخـير فى غابة من الزيتون فى ظاهر هذه المدينة ، وخلف أسوار صيدون ، وفى سفح الجبل عند مصب نهر أدونيس ، بجوار بيبلوس ! وشجر الزيتون لا ينبت فى حقول قرطاجة وسهولهـا • ولهـذا ، أردت أن أحتـاط للمستقبل ، وأن آخـذ معى من أغراس الزيتون ما يجعله فى متناول اليد ، يوم أرحل عن هذا العـالم فأجد غرسا منها يزرع على قبرى ، عملا بما درجنا عليه من قديم الزمان • الزمان ••

وبعد سكوت قصير قال أزوداس :

ـ لست أدرى كيف أن اخواننا هناك لم يفكروا بعد فى سد هذه الثغرة فى ثروتهم الزراعية ، ولم يعمدوا الى زراعة أشجار الزيتون فى بلادهم ، لاستخراج زيتها ، واستخدام أعوادها وأوراقها ، كما نفعل •• فانهم يعتمدون علينا فى تموينهم بالزيت والزيتون ، ولا يعنـــون قط بزراعة الشجرة الجميلة التى تغطى سفوح جبالنا وسهولنا •

وقالت اسماتا :

ـ أبى ••• قبل أن تزرع غرس الزيتون على قبرك بعـد عمر طويل مديد ، سأزرع واحدا منها ، بيدى هذه ، فى حديقة الدار التى ستقيم فيها ، يوم تحتفلون هناك ، بزفافى ••• وسيكون غرس الزيتون هذا تاريخا لزواجنا ، براجليون وأنا !

ووافق الجميع على هذه الرغبـة التى أبدتهـا الفتاة ، وقضوا وقتهم فى تلك الليلة المقمرة فى تبادل الاحاديث ، حول عميدهم الكاهن الاكبر لتوديعه قبل الرحيل الذى قد لا يلتقون بعده •

قوبل أزوداس فى قرطاجة بمظاهر التكريم والتعظيم ، واستبشر الناس خيرا بقدومه ، بالنظر الى ما كان يتمتع به من شهرة واسعة وسمعة طيبة ، والى الخلافات المستحكمة بين كهنة الهياكل فى قرطاجة ، والتى لم يكن هناك بد من ازالتها ، حفظا لكرامة الآلهة وصـــيانة لطقوس العبادة •

وقوبلت أسماتا ، الفتاة الجميلة اللطيفة ، بمظـــاهر الترحيب والفرح ، من حبيبها القائد الشاب براجليون • الذى كان على أهبـــة

السفر مع الجيش القرطاجي فى حرب جديدة ، والى غزوة توسع شقة الممتلكات القرطاجية باضافة رقعة من الارض اليها •

وفى بضعة أيام فقط ، تمكن ازوداس الحكيم الحليم من اعادة الوئام الى هياكل الآلهة ، وازالة اسباب الخصام من نفوس الكهنة فتنفس الناس الصعداء ولهجت السنتهم بالثناء على رسول السلام الذى أوفدته اليهم « صور » الفينيقية •

وأقام القرطاجيون عرسا لابنة الكاهن لم تشهد مدينتهم مثله من قبل • فقد اشترك فيه السكان جميعا : الكهنة اكراما لكبيرهم ازوداس والجنود اكراما للقائد براجليون ، والشعب لانه مرح دائم الرغبة فى اغتنام الفرص ليرقص ويغنى ويأكل ويشرب على حساب الاغنياء بين حرب وضعت أوزارها ، وحرب لم تبدأ بعد !

وبعد زفاف أسماتا الى القائد براجليون نفذت الفتاة ما قررته فى ميناء صور ، يوم التأم شمل الاسرة على شرفة الدار ، فزرعت غرس زيتونة صغيرة فى حديقة بيتها الجديد ، أمام الباب • ابقاء لذكرى اليوم الذى ربطت فيه حياتها بحياة الرجل الذى اختارها زوجة واختارته زوجا •

ولم تكن أسماتا تعلم ، وهى تغرس الزيتونة ، أنها تغازل الموت وتدعوه لزيارة الدار •

فقد ذهب براجليون الى الحرب بعد زواجه ببضعة أيام •

ولم يعد من الحرب !

فقد هبت عاصفة هوجاء على السفن التى نقلت تلك الحملة القرطاجية الى جزيرة « مالطة » وكانت فى ذلك العهد ملكا للفينيقيين • وكان على الحملة أن تنطلق من تلك الجزيرة الى القارة الاوربية شمالا •

ولكن الاقدار شاءت غير هذا ، فحالت العاصفة دون استمرار الحملة فى طريقها واغرقت منها ثلاث سفن ـ منها السفينة التى كان يقودها براجليون •

غرق القائد ولكن رجاله تمكنوا من انتشال جثته من اليم • فحملوها الى قرطاجة حيث دفنت فى احتفال عسكرى مهيب •

وأرادت عروس الميت التى حل بها المصاب القاسى ولم تنعم بحبها

ان يدفن زوجها فى حديقة الدار ، أمام الباب ، بجوار الزيتـــونة الصغيرة التى غرستها بيدها يوم زفافها ! ٠

وكان لها ما أرادت ٠

وبعد ان وارى الجنود قائدهم التراب ٠ ألقت اسماتا بنفسها على الضريح واستسلمت للبكاء والنحيب ٠

وبين يدى أبيها الكاهن الاعظم ، الذى حملها الى داخل الدار وقلبه الحزين يكاد ينفجر فى صدره ، تمتمت العروس الارملة قائلة :

ــ أبى ٠٠٠ جئنا بأغراس الزيتون لكى نؤمن زرعها على قبـور الاسرة ٠٠٠ وما كنا نظن ان أول قبر نزرعها عليه سيضم ســعادتى وهنائى !

غير ان حزن الفينيقية الحسناء كانت له نهاية ــ فلكل حزن نهاية ، حتى لو كان حزن العروس المحبوبة على عريسها المحبوب ٠

كانت اسماتا فى حوالى العشرين من العمر لما تزوجت وترملت فى شهر واحد ٠

ولما بلغت الثلاثين ، كانت زوجة لابن عمهـا ، الذى وافاها من صور ، وأما لأطفال أصحاء أقوياء ٠

ومات أبوها الكاهن الأعظم أزوداس ، فدفن فى الحديقة أيضا ، بجوار القائد براجليون ، وغرست اسماتا على قبره شجرة زيتون أخرى عملا بتقاليد الاسرة !

وكانت أغراس الزيتون التى جاء بها الكاهن معه ، والتى أرسلت اليه فيما بعد من فينيقية ، قد وزعت على الحدائق والبساتين والمزارع ، فى قرطاجة وحولهـا ، فانتشرت رزاعة الزيتون منذ ذلك الوقت فى تلك البقعة من الارض الافريقية ٠٠ واسم تلك البقعة اليوم «تونس» ٠

وبفضلها استحقت هذه البلاد الجميلة الاسم الذى لازمها منـذ أجيال ، بعد أن دالت دولة القرطاجيين ، وتتابع الغزاة والفاتحون جيلا بعد جيل : « تونس الخضراء ! » ٠

الموت أو العار

تناولت الملكة السم من يد حبيبها وتجرعته تجنبا للعار ٠ ولكنها اخذت على الحبيب عهدا بان ينقذ وطنه من الحكم الاجنبى ٠٠ فانقلب الخائن وطنيا متطرفا بفضل الحب ! ٠٠

مرت « سوفونسيه » على هذه الارض مرور الشهب المـــارقة فى الفضاء • وتناولها المنجل قبل الأوان سنبلة لم يحن بعد وقت حصدها • فماتت فى ريعان الشباب ، ولكن بعد أن دونت اسمها فى سجل التاريخ بأحرف من دم ونار •••

كان «هانيبال» بطلا عظيما بين الابطال العظماء• ألقت اليه «قرطاجة» مقاليد أمورها فنازل أعداءها الرومانيين وقهرهم فى الميادين وطاردهم فى مختلف الاقطار والامصار ، بجيشه المظفر ، مطاردة الثعبان لبغاث الطيور، وأوشك أن يستولى على عاصمة ملكهم لو لم يداخله الغرور شأن العظيم تدلله الاقدار وتغالى فى تدليله !

وكان لهانيبال أخ يدعى «أسدر بعل» أصلى الرومانيين أيضا ، من بعد أخيه ، حربا حامية ، وسار فى الطريق الذى سار فيه أخوه العظيم من قبل •••

وسوفونسيه ، موضوع هذه القصة ، ابنة أسدربعل ، رأت النور عام ٢٢٥ قبـل الميلاد ، ونشأت فى كنف أبيهـا الذى لقنها مبادىء الوطنية الصحيحة والاخلاص للعشـيرة والتفانى فى سـبيل قرطاجة وسيادتهـا ومجدها •

بلغت الرابعة عشرة من العمر فأحبها الضابط القرطاجى«ماسينيسا» وكان جميلا مقداما • فقابلت الفتاة حبه بمثله وتعـاهد العاشـقان على الزواج •

لكن الظروف حالت دون اتمـام رغبتهما وتحقيـق آملهما ، لان الرومانيين اكتسحوا افريقية الشمالية وزحفوا على قرطاجة ظافرين • فعقد العظماء والقواد مجلسا برياسة أسدربعل لاتخاذ التدابير اللازمة أمام الخطر الداهم •

واستقر رأيهم على التحالف مع « صفاقس » ملك موريتانيا ، وهو الجار الوحيد فى افريقية القادر على الوقوف فى وجه الغزاة وفى طريق جيشهم الزاحف •••

عرضوا عليه المحالفة وبسطوا له آراءهم ، فقبل الرجل أن يحالفه ويضع يده فى أيديهم لصد الغزاة الفـــاتحين ، ولكنه وضع لذلك شرط واحدا ، وهو اعطاؤه الاميرة الفاتنة سوفونسيه زوجة له ٠٠٠

كان صفاقس شيخا مسنا ، فجعلت الفتـــاة تنتحب وتندب حظها لكن والدها أقنعها بقبول الشيخ زوجا لها ، قائلا ان سلامة الوطن فى يدها ٠

وتغلب حب الوطن فى قلب الفتاة على عاطفة الغرام ٠ فكاشفت خطيبها بالامر ٠ وصدمته بالحقيقة المرة ٠ ولكنها أقسمت له أنها أحبته وتحبه ، وسوف تظل على حبها ولن تحب سواه ٠٠٠ غـير ان الواجب المقدس ، الواجب نحو الوطن ٠٠٠ نحو قرطاجة المهددة ٠٠٠ يحتم عليها أن تضحى بحبها ٠

غضب ماسينيسا وحقد على بنى وطنه الذين سلبوه السعادة والهنا فى الحب ٠ وبعد أن قضى الامر وزفت الامـــيرة الجميلة الشـــابة الى الملك صفاقس الشيخ ، هجر الضابط العاشق قرطاجة ، وتاه بعض الوقت حائر لا يستقر على رأى ، ثم انضم الى أعداء وطنـــه ، وحارب فى صـــفوف الرومانيين !

فطن القائد الرومانى الى الفوائد التى يمكن ان يجنيها جيشه من وجو ذلك الثائر الناقم فى صفوفه ٠ فعهد اليه بقيادة الفرقة الزاحفة على مدينة «سيرتا» ومعقل خصمه فى الحب ، الملك صفاقس !

وكان الملك قد جمع جموعه وحشد جيشا لجبا سير جزءا منه لشـــد أزر القرطاجيين ، واعتصم هو مع الجزء الثانى ، وهـــو مؤلف من خيرة جنوده ، فى عاصمته المنيعة ٠ وأقامت زوجته سوفونسيه بجانبه ، تشجع المقاتلين وتواسى الجرحى ٠

مشى القائد الرومانى العام ـ سيبيو الشهير بالافريقى ـ بجيشه الى قرطاجة وتقدم ماسينيسا الى سيرتا فخرج صفاقس للقـــاء خصمه ، ونشب القتال بين الفريقين ، فغلب الملك الشيخ على أمره ، وانهزم فى الميدان ، فتراجع الى داخل الاسوار ليحتمى بها ٠٠٠

وضرب ماسينيسا الحصار على المدينة من جميع جهاتها ٠

وتسرب الوهن الى قلب الملك ، وتولاه اليأس ، وأخبر زوجته ان ماسينيسا حبيبها بالامس مقبل للانتقام منـــه ٠ وطلب اليهـــا أن تنجو



ماسينيسا
ملك نونيديا وموريتانيا

بنفسها وتهرب من المدينة وتعود الى قرطاجة ، حيث أبوها وأمها وعشيرتها ...

لكن الملكة رفضت بإباء ماعرضه عليه زوجها ، قائلة ان واجبها انما هو فى البقاء مكانها بين الجنود البواسل للدفاع الى النهاية .

وخان الملكة قلبها فى أثناء الحديث ، وباحت شفتاها بكلمات لم تستطع حبسها ، فأدرك الزوج التعس أن الفتاة الجميلة التى استولى عليها ثمنا لمحالفته ، لاتزال على حبها القديم باقية ، وعلى عهدها السابق مقيمة بعد أن أصبحت امرأة وزوجة ..

فتولاه الغيظ واقسم أمامها أنه خارج للقاء ماسينيسا ثانية ، وجها لوجه فاما أن يعود اليها حاملا على كفه رأس حبيبها ، واما أن يموت كريما فى ساحة الشرف ، فيترك الزوج رأسه بين يدى العشيق !

وخرج صفاقس من المدينة مع فريق من الحامية . ودارت رحى القتال من جديد بين العدوين تحت أسوار سيرتا ..

واستبسل الملك الشيخ ولكنه غلب على امره مرة أخرى ، ودخل ماسينيسا المدينة فاتحا ، وانتشرت فيها اشاعة مصرع الملك فى حومة الوغى ...

وكان من عادات ذلك العهد أن يساق أهل المدينة المكتسحة أسرى فى الاغلال يرسفون . وأن يقتسم الفاتحون اولئك الاسرى ، فيجعلون من الرجال عبيدا ومن النساء سبايا ومحظيات ...

وهذا ما اعتزم الرومانيون أن يصنعوه بعد استيلائهم على سيرتا ...

دخل القائد المنتصر على خطيبته بالامس . فانطلقت سفونسبه تؤنبه على خيانته وانضمامه الى الاعداء ومحاربته ابناء وطنه تشفيا وانتقاما. ومما قالته له :

ما ذنب قرطاجة لكى تسىء اليها ؟ اذا كان واحد من القرطاجيين قد أساء اليك ؟ وما ذنب وطنك لكى تؤذيه ، وتذله ، اذا كان بعض مواطنيك قد آذوك أو أذلوك ؟

وانفجر ماسينيسا وراح يعاتب بدوره :

ـ لم أقدم على شىء مما فعلت الا حبا بك ! .. لم أدخل سيرتا للاستيلاء على المدينة فحسب ، بل لاسترجاع الحبيبة والانتقام من الرجل

الذى اغتصبها منى ... والحبيبة أنت يا سوفونسيه ... وأقسم لك الآن ، بعد أن بلغت مرادى اننى على استعداد للتكفير عما فرط منى ومحو ذلك الماضى .. قولى كلمة ، وساعلن من الآن انتقاضى على الرومانيين ، قولى كلمة ... قـــولى انك ترضين بى زوجا لك ، فيتغير كل شىء ... ولن يساق أهل المدينة أسرى الى روما ، بل يطلق سراحهم ، ويعطون سلاحا لمواصلة الحرب ... الحرب ضد روما ! .

كان الرومانيون قد أعلنوا أن ماسينيسا سيصبح ملكا على موريتانيا بعد أن يتم له الاستيلاء على سيرتا ، وانهم يهبونه أيضـــا مملكة نوميديا المجاورة لموريتانيا . فلمـــا عرض خطته علىّ سوفونسيه ، كان الضابط الخائن اذن يخاطبها بوصفه الملك الذى حل محل زوجها على العرش !

فكرت الملـــكة فى الامر ــ وهى التى تزوجت بالرغم منها ، والتى بقيت على الوفاء لحبها الاول ــ فراقها ما عرضه عليها القائد المنصور ، ظنا منها أنها بذلك ستنقذ شعبها من الاسر ، وتكسب ماسينيسا من جديد لوطنها قرطاجة .

وما فكرت سوفونسيه فى القبول ، الا بعد أن اعتقدت ان الملك الشيخ قد لقى حتفه ... فما الفائدة من البقاء على اخلاصها لزوج مات وانقضى أمره !

واتفق الاثنان ماسينيسا وسوفونسيه على وضع القائد الرومانى أمام الأمر الواقع ...

وصل سيبيو الى سيرتا . فافضى اليه ماسينيسا بما تم بينه وبين الملكة . وقال ان شعب سيرتا وموريتانيا ونوميديا انما هو شعبه ، لانه بويع بالملك مرتين: الاولى من الرومانيين أنفسهم قبل دخول سيرتا وتنفيذا للمعاهدة بينه وبينهم ، والثانية من الملكة نفسها التى رضيت به زوجا بعد مصرع صفاقس !

لم يحفل سيبيو بما قاله ماسينيسا . بل فاه أمامه بعبارات تنم عن احتقار ممزوج بالتهديد ، وتهديد ممزوج بالاحتقار . وقال انه هو القائد العام الذى يمثل روما وارادتها ، وانه صاحب السلطـــان المطلق فى كل أرض يفتحها الجيش باسم روما ...

وقرر سيبيو اقامة عرض فى المدينة احتفـــالا بالنصر ، وأن يسير الجيش فى العرض ومعه الاسرى . وطلب من ماسينيسا أن يتخلى عن الملكة

لكى تساق ذليلة مكبلة بالسلاسل ، أمام الجيش ، مع غيرها من السبايا ٠٠

شق الامر على ماسينيسا ، وأراد أن يحول دون ذلك وأن يدفع عن حبيبته العار والذل ٠ فحاول أن يثير الحامية لكى تعلن تمردها على سيبيو القائد العام وعلى روما ٠٠٠ لكنه فشل ٠٠٠

ودب اليأس الى قلب العاشق الحائر ٠

وفى تلك الاثناء ، دوى فى المدينة خبر كان له فى القصر الملكى وقع الصاعقة ، وفى قلب الملكة المسكينة فعل النصل الحاد ٠٠٠

أن صفاقس لم يمت ! فقد أصيب فقط بجرح عميق ٠ فحمله جنوده وأخفوه عن أعين الاعداء وأسعفوه بالعلاج ٠٠٠

وهو الآن فى داخل الاسوار ٠٠٠

بل هو الآن فى طريقه الى القصر ٠٠٠

بل هاهو ذا صفاقس يدخل القصر ٠٠ فيأذن له القائد الرومانى بان يختلى بزوجته ٠٠٠

قصت عليه سوفونسيه كل ما حدث ولم تحاول أن تخفى عنه شيئا من التفاصيل : انها لا تزال تحب ماسينيسا وترغب فى اتخاذه زوجا لها ٠ وتريد أن تنقذ قرطاجة بفضل ذلك الزواج لانه يعيد الخائن الى حظيرة الوطنية والصواب ٠

وغضب صفاقس ٠٠٠ وشتم وهدد ٠٠٠ ولكنه وجد نفسه مخذولا ضعيفا أمام امرأة عولت على الاصغاء لصوت قلبها فقط ٠ فرماها بالخيانة والجبن ٠

وأسرع الى سيبيو يطلب منه اقصاءه عن بلاد كان فيها السيد المطاع، فأصبح الآن وقد ضاع ملكه بسبب امرأة ٠٠٠ ووقع فى الاسر ، وفقد كل شىء ٠٠٠ وأوشك أن يفقد الشرف ٠٠٠

وتحرك ضمير المرأة فهالها ما أقدمت عليه !

أصبح زوجها الاول أسيرا لدى الاعداء ، بعد انهيار عرشه وهو عرشها وانهزم جيشه وهو جيشها ، وأصبح زوجها الثانى تعسا مغضوبا عليه ، بعد أن خان وطنه بسببها ، وشرع فى خيانة روما التى اقترف خيانته السابقة من أجلها ٠٠٠

وبلادها ··· قرطاجة وموريتانيا ، أصبحت تحت رحمة الغزاة الفاتحين ، يتحكمون فيها ويأمرون وينهون ···

وأصبحت هى فى حيرة وشقاء ، تتقاذفها المخاوف وتكتنفها الويلات ، بعد أن أصيبت فى حبها ، وفى زواجها وفى وطنيتها !

ودعت ماسينيسا وقالت له :

ـ لن أرضى بالظهور بين الاسرى أمام الرومانيين ··· بل أوثر الموت ألف مرة على العار مرة ···

وتحرك ضمير العاشق كما تحرك ضمير العاشقة ··· فبكى ماسينيسا ··· واستطردت الملكة تقول :

ـ انت الوحيد الذى أحببته فى هذا العالم · فاستمع الى مشيئتى الاخيرة : أريد أن أموت ··· فاطلب منك أن تعطينى سما يودى بحياتى بدون ألم ·· ثم أرغب اليك فى شيء آخر ··· وهو أن تنتقم لوطنك وتثأر لى أنا من الاعداء ··· لقد خنت قرطاجة بسبب حبى ··· وحاربت أبناء قومك لكى تنزعنى من بين أيديهم ··· فانتقض الآن على الرومانيين كما انتقضت من قبل على القرطاجيين ·· عليك أن تخونهم من أجل حبى وتنتزع هذه البلاد من أيديهم تكفيرا عن ذنوبك الماضية ··· فاذا فعلت ذلك رضيت عنك روحى فى عالم الخلد ! ·· افاعل أنت ؟

فاحتضن الحبيب حبيبته ، وغمر جبينها بالقبلات ، وتمتم قائلا :

ـ اننى لفاعل ما تريدين !

ـ أتقسم بآلهتنا وآلهة أجدادنا ؟ ·· أتقسم بأرواح أولئك الآباء والاجداد ؟ ·· أمام بعل وملكارث وعشتروت وجميع آلهة فينيقيا العظام· آلهة البلد الذى جاء منه أجدادنا وآباؤنا ···

فبسط ماسينيسا يده وأقسم :

ـ أقسم أمام الآلهة ، بأرواح الآباء ورفات الاجداد أن ؟ ياسوفونسيه وأنتقم لقرطاجة وسيرتا ، وأحارب الرومانيين التى حاربت بها معهم ···

وعملا بارادتها الاخيرة ، جاءها بالسم الذى طلبته

وسألته سوفونسيه :

ـ ما اسم هذا السم أيها الحبيب !

ـ اســـمه « شوكران » ٠٠٠ تجرعه سقراط فمات بين أنصاره ومريديه ميتة هنيئة هادئة ٠٠٠

فتناولته الملكة من يد الحبيب ٠٠٠

وسرى السم في عروقها ، وخارت قواها شيئا فشيئا ٠٠٠ وجعلت تلفظ كلماتها الاخيرة مع أنفاسها ٠٠٠

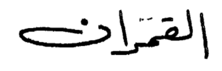
« وداعا أيتها السماء الزرقاء ، سماء بلادى الجميلة ٠٠٠ وداعا أيها الوطن المحبوب ٠٠٠ أغادرك ذليلة مهانة ، ولكننى آمل لك النهوض من كبواتك ، وأرجو لك السعادة على يد حبيب أقسم لى أن يعيد اليك مجدك وحريتك ٠٠٠ وداعا أيها الاصدقاء ٠٠٠ لا تذكروا بسوء امرأة أحبتكم جميعا ، وما فعلت ما فعلته الا حبا بكم وبوطنكم ٠٠٠

٠٠٠ سأعود اليكم بروحى ٠٠٠ وأطوف على أبوابكم ، متنقلة من القصر الشاهق الى الكوخ الصغير ، مستفسرة عنكم ، طالبة لكم الهناء الذى لم أتمتع به فى حياتى ! ٠٠٠ ارسلوا من بينكم من يحمل خبر وفاتى الى والدى الحزين المســـكين ، فى قرطاجة ، حيث يحاصره الاعداء وتساوره الشجون ٠٠ وقولوا له أن ابنتــه سوفونسيه ماتت فى سبيل قرطاجة ، وانها تطلب اليه أن يموت أيضا فى سبيلها اذا تعذرت عليه الحياة عزيزا حرا مـكرما فى وطن مـكرم حر عزيز ٠٠٠ قولوا له ان روحى سترفرف عليه فى ظلام هذه الليالى ، وانها ستفرح لفرحه وتشـــقى لشقائه ٠٠٠ قولوا له اننى كنت زوجة صالحة ، ومواطنة مخلصة واننى حملت اسمه طاهرا نقيا ٠٠٠ قولوا لنساء قرطاجة : لقد ماتت سوفونسيه فى سبيل الوطن ، فعلى كل امرأة أن تفعل مثلها اذا لزم الامر !

٠٠٠ جاءت اليمامة ٠٠٠ اليمامة المرسلة من لدن الآلهة ٠٠٠ جاءت لتحمل على جناحيها روح سوفونسيه ابنة أسدربعل ٠٠٠ فالوداع !٠٠٠

وصعدت روح سوفونسيه فى الفضاء محمولة على أجنحة اليمام ٠٠٠

وكانت فى الثـــالثة والعشرين من العمر ٠ وكان ماسينيسا فى الخامسة والعشرين ٠٠٠



عاشتا معا ...

وماتتا معا ...

ودفنتا معا ...

شرشل ، سيزاريا ، قيصرية ... ثلاثة أسماء لمسمى واحد . غير أن الاسم الاول هو الذى تعرف به الآن تلك المدينة الرومانية القديمة الواقعة على شاطىء « الجزائر » الشمالى .

اطلق عليها جوبا الثانى ملك موريتانيا اسم « يوليا سيزاريا » تخليدا لذكرى القائد الفاتح الرومانى يوليوس قيصر . ولا تزال آثار الهياكل والقصور والقلاع التى شيدها ذلك الملك فى « قيصرية » عاصمة ملكه باقية الى الآن فى المدينة التى يعرفها الجزائريون باسم « شرشل » .

مات جوبا الثانى ملك موريتانيا فى العام الثانى عشر بعد الميلاد ، وخلف وراءه ذكرى طيبة واسما عطرا ومؤسسات عديدة ومؤلفات باللغة اليونانية قيمة مفيدة .

وكانت زوجته « كليوباترة سيلانه » أو الاميرة « قمر » قد سبقته الى العالم الآخر .

وفى اليوم الذى انتقلت فيه كليوباترة سيلانه الى دنيا الارواح ، رحلت ايضا عن هذه الأرض وصيفتها المحبوبة «لونا» أو بعبارة أخرى «قمر» .

فمن هو جوبا الثانى ومن هما « القمران » اللذان غابا من الأنظار قبل ان يصبحا بدرين كاملين ؟ .

كليوباتره
بموتها انتهى حكم البطالسة في مصر
وبدأ في المغرب

ماتت كليوباترة الكبيرة ملكة مصر منتحرة على أثر موت عشيقها ماركوس انطونيوس ، تاركة ابناء من آباء مختلفين بينهم ثلاثة هم ثمرة غرامها الجنونى الذى جر عليها وعلى عشيقها الرومانى المصائب والويلات

وهؤلاء الاطفـال الثلاثة هم : الـكسندر هليوس أو اسـكندر الشمس ، وكليوباترة سيلانة أى كليوباترة القمر ــ وفيلادلف .

أفل نجم انطونيوس وفشل ذلك القائد العاشق فى ميدان السياسة والحرب ، وانهزم فى الميادين شر هزيمة . ولم يستطع ثبـــاتا أمام اوكتافيوس شقيق الزوجة التى طلقها انطونيوس وسقاها كأس الهوان حتى الثمالة حبا بكليوباترة ورغبة منه فى التمرغ بين ذراعى تلك الملكة الفاتنة الساحرة .

قطع أنطونيوس حبل حياته بيده بعد أن يئس من النصر .

وجاء احد رجال كليوباترة المخلصين الى الملكة التعسة بحية سامة فى سلة مملوءة تينا . فماتت تلك الميتة التى خلدت فى التاريخ اسم الحية للمرة الثانية ــ منذ عهد حواء ! .

وفى العام التاسع والعشرين قبل الميلاد عاد اوكتافيوس الى روما سائقا أمامه الاسرى والسبايا ، وبينهم أبناء كليوباترة من عشاقهـــا الكثيرين . وفى مقدمتهم أبناء عدوه من الملكة الراحلة .

كان التوءمان ــ هليوس وسيلانة ــ فى العاشرة من العمر ، وكان فيلادلف اصغر منهما سنا .

عهد أوكتافيوس الى اخته اوكتافيا زوجة انطونيوس المطلقـــة المهانة ، فى تربية أبناء زوجها من عشيقته تربية رومانية خالصـــة ، بحيث تستطيع روما فى مستقبل الايام أن تستخدمهم لقضاء مآربهـــا وتحقيق اغراضها .

ولكن الكسندر هليوس وفيلادلف ماتا قبل ان يبلغا الرشد . وبقيت كليوباترة سيلانة على قيد الحياة .

وعنـــدما وضعت روما تاج الامبراطورية على رأس أوكتافيوس ونادت به امبراطورا على الغرب والشرق باسم «أوغسطس» ، جعل الرجل يفكر فى انشاء دولة جديدة تخضع لتاج قيصر ويجلس على عرشها ملك وملكة ممن غذتهم روما بلبنها وعجنتهم بيدها .

وكان يقيم فى روما فى ذلك الوقت الامير جوبا الافريقى ابن جوبا الأول ملك نوميديا . وكان «يوليوس قيصر» قد هزم أباه واجتاح وطنه وضمه الى ممتلكات روما الشاسعة .

نشأ الامير جوبا فى روما نشأة لاتينية أنسته أصله ومصائب أبيه، فأصبح أطوع لقيصر من بنانه • وعندما بلغ اشده أقامه أوغسطس ملكا على « موريتانيا » الافريقية باسم «جوبا الثانى» •

وأطلق الملك الجديد على عاصمة ملكه اسم « سيزاريا » أو « قيصرية » •

وفكر الامبراطور فى اعطائه زوجة تكون مثله مشبعة بروح روما وثقافتها • فوقع اختياره على كليوباترة سيلانة ابنة الملكة المصرية المشهورة ، والحلقة الوحيدة الباقية من سلالة انطونيوس فأصبحت ابنة كليوباترة ملكة مثل أمها ! •

وقال قيصر لربيبته وهو يودعها يوم رحيلها عن روما الى عاصمة ملكها :

ـ لقد كان اسم « هليوس ـ الشمس » شؤما على أخيك اسكندر فلعل اسم سيلانة ـ القمر » يجلب لك يا ابنتى الخير والسعادة والهناء ! •

وانصرف جوبا الى ادارة شئون مملكته بلباقة ومقدرة • فازدهرت موريتانيا فى عهده وعاش شعبه فى رخاء واطمئنان • وتمكن ذلك الملك النابغة من التوفيق بين ارضاء بلاده وارضاء روما فى آن واحد •

أما كليوباترة سيلانة فانها لم تكن على وفاق مع ذلك الزوج الذى كان يهمل الملكة ولا يعطيها من وقته اكثر مما تسمح له بذلك شئون المملكة • ولم تكن تلك الشئون لتسمح له بالاهتمام بزوجته والقيام تجاهها بواجبه كله •

وكانت كليوباترة سيلانة تعد نفسها أشرف محتدا من ذلك الزوج وأنقى دما منه • اليست أمها كليوباترة ؟ أليس والدها ماركوس انطونيوس ؟ أليست الدماء التى تجرى فى عروقها مزيجا من الدم الرومانى النبيل والدم اليونانى النبيل أيضا ؟ فمن يكون جوبا الافريقى الموريتانى بالنسبة اليها ؟ •

وامرأة هذه عقليتها وهذا اعتقادها فى نفسها لا يمكن أن تجعل زوجها سعيدا فى حياته وتضمن له الهناء • واذا أضفنا الى ذلك أن الزوج نفسه كان فى شغل شاغل عن زوجته ، منصرفا الى معالجة شئون مملكته ورعاية الادب والعلم وتشييد الهياكل ، والقصور وتاسيس المعاهد وخدمة الفنون ، أدركنا أن كلا الزوجين الملكيين كان يعيش غريبا

عن الآخر ، معتمدا على نفسه فقط ، غير باحث عند رفيق حيـــاته على معونة أو عطف أو حب ! •

وكانت الملكة سيلانة تتمتع بحقوق خاصة بها ، أقرتهـــا روما وأرغمت الملك جوبا الثانى على اقرارها أيضا ، بحجة أن سيلانة رومانية أصيلة فى حين أن زوجهــــا غريب عن روما تبناه الامبراطور فاكتسب القومية الرومانية اكتسابا • وتلك الحقوق التى كانت كليوباترة سيلانة تتمتع بها كانت تجعلها قادرة على طبع صورتها على النقودالموريتانية وعلى جدران الهياكل والقصور ، واصدار أمرها الى رجال الحرس والجيش ، ومناهضة سلطة الملك اذا خطر ببالها أن تفعل •

وكثيرا ماكان يخطر ذلك ببال كليوباترة سيلانة !

***

ـ تعالى يالونا تعالى فاننى أشعر الليلة بضيق فى صدرى ويخيل الى أننى مسرعة بخطى واسعة نحو القبر !

القت « لونا » بنفسها على قدمى سيدتها وقالت بصوت حنون ينم على حب واخلاص :

ـ بددى أفكارك السوداء يامولاتى فسوف تعيشين طويلا • انك جميلة قوية والمستقبل يضحك لك ويناديك !

ـ كلا يا لونا ! •• لقد شاءت الآلهة أن تغرب « شمس » أخى هليوس قبل الأوان ، وسوف يغيب «قمر» سيلانة قبل الأوان أيضاً !

قالت الملكة الشابة هذا وبكت ••

وتساقطت دموعها على يدى وصيفتها «لونا» فبكت الجارية لبكاء سيدتها •

وامتزجت دموع «القمرين» وسيلانه ولونا فى سكون ذلك الليل ، فى قصر جوبا الثانى المشرف على البحر بمدينة قيصرية •

ـ لونا •• لقد اطلقوا عليك هذا الاسم لانك ولدت فى الليلة التى ولدت فيها أنا ! سمونى بلغة أمى اليونانيه « سيلانة » وسموك بلغـة عشيق امى انطونيوس الرومانى «لونا» والاسمان لمسمى واحد • هو القمر الذى يضىء الليالى السوداء • ولكن القمر اليونانى سوف يغيب قبل أن يصير بدرا • فلن يتحقق دعاء أوغسطس قيصر ! وأرجو ياأختى أن يبقى القمر الرومانى متلألئا فى الفضاء وأن تعيشى طويلا يا لونا !

فقبلت لونا قدمى مولاتها وقالت والزفرات تخنقها :

ـ لن أنسى يا سيدتى أن أبى المصرى هو ذلك الرجل الذى خضع لارادة أمك الملكة العظيمة ، وحمل اليها فى قصرها بالاسكندرية الحية السامة فى سلة التين • لقد مات أبى أيتها الملكة بعد أن أفضى الى برغبته الاخيرة : وهى أن ألحق بك حيث تذهبين ، وان أكون لك خادمة مطيعة كما كان بائع التين خادما مطيعا لأمك ، وان ارحل عن هذا العالم فى اليوم الذى نرحل فيه عنه سيلانه ويغيب قمرها عن الانظار !

ـ اذن سوف نلحق بأمى وأخوى فى العالم الآخر متعانقين ، فيلتقى القمران هناك بكليوباترة ربة السحر والجمال وابنها هليوس الشمس المشرقة !

وفى اليوم التالى ، ارتفعت فى قصر الملك أصوات النساء ومزق عويلهن الفضاء وحمل الرسل الى الملك جوبا الثانى خبر وفاة زوجته كليوباترة سيلانة •

ترك الملك مجلسه • وأسرع الى حجرة الملكة ، فاذا به أمام جثة هامدة •

بل امام جثتين هامدتين !

جثة زوجته وقد خرجت روحها من بين شفتيها ، تاركة عليهما ابتسامة حلوة •

وجثة الوصيفة لونا وقد بات وجهها حالك السواد من أثر السم الزعاف الذى تجرعته •

وقف جوبا الثانى أمام الجثتين مطرق الرأس صامتا • ثم التفت الى نساء القصر ورجال الحاشية وقال :

ـ لتدفن الملكة فى حديقة القصر ، وليعلن الحداد عليها اربعين يوما •

ثم تقدم من جثة زوجته وتناول يدها بيده وقال :

ـ لم نذق لذة الحياة معا ايتها الحبيبة ولم ننعم بالسعادة والهناء فى هذا العالم ، فلتسهر عليك الآلهة فى الآخرة ، وأعدك الآن بأننى سأتعهد بعنايتى ولدنا « بطليموس » وابنتنا « دروزيلا » راجيا أن يكونا فى هذه الحياة اوفر منا حظا وسعادة وهناء !

وهم الملك بالخروج من قاعة الموت فارتفع صوت سائلا :

ـ ولونا ؟ لونا الوصيفة الامينة ، اين ندفنها ؟

فأجاب الملك :

ـ لتدفن بجوار سيدتها . فقد كان القمر للقمر وفيا !

وفى حديقة القصر رقد القمران : كليوباترة سيلانة ، ابنة كليوباترة ملكة مصر من عسيفها الرومانى ماركوس انطونيوس وزوجة الملك جوبا الثانى . والوصيفة «لونا» ابنة البائع المصرى الذى حمل الى كليوباترة العظيمة الحية السامة فى سلة التين !

قبر الرومية

ما أكثـر الأماكن الأثرية التي تحمـــل أسماء لا تنطبق على المسمى : ومن هـــذه الأماكن « قبر الرومية » في الجزائر.

لم يتردد « بطليموس » ملك موريتانيا ، لحظة واحدة فى السماح بالمثول بين يديه ، للمرأة المصرية التى وقفت بباب القصر فى صباح ذلك اليوم ، قائلة انها قادمة من روما لمقابلة الملك والافضاء اليـه بأمر خاص به دون سواه ٠

ان لمصر فى نفس بطليموس مكانة خاصة ٠ فهى مسقط رأس أمه، ومقر عرش تبوأه أجداده نحو ثلاثة قرون ، حتى جاء الرومان فأزالوه من الوجود ٠٠٠

دخلت المرأة ٠ فاذا هى غادة بارعة الجمال ، فى نهاية العقد الثالث من العمر ترتدى ثوبا هو مزيج من الطرازين المصرى والاغريقى ، كماكان شائعا فى عهد البطالسة فى الاسكندرية ٠٠٠

رحب بها الملك ، وقال لها انها تحل فى ضيافته منذ تلك الساعة وسألها ما الذى حملها على هجر وطنها ، ولماذا جاءت الى عاصمته « يوليا سيزاريا » وهل هى وحدها ، أم فى صحبة رفاق من بنى قومها ؟

وبصوت عذب ، وعبارات تتخللها العبرات ، قصت المرأة قصتها على بطليموس ٠٠٠

انها وحدها لا يصحبها أحد فى رحلتها ٠٠٠ بل انها وحيـدة فى الحيـاة لا تمت الى أحـد بنسب ٠٠٠ مات أبوها المصرى وهى فى سن الرضاعة ٠ فعنيت بتربيتها أمهـا « انطونيا » ابنة « سيسترا » الوصيفة فى بلاط الملكة كليوباترة ، وهى أيضا تحمل هذا الاسم ، اسـم جدتها « سيسترا » ٠ ولما شعرت الأم بأن ساعتها الاخيرة قد دنت ، أرادت أن تطمئن على مستقبل الصبية ، فاختارت لها من بين أصدقاء الأسرة زوجا صالحا ، وسلمتها ما كانت تدخره من مال ، وتملكه من تحف وحلى ٠ ثم تناولت كيسا مصنوعا من جلد الغزال ، وأخذت منه خمارا ناصع البياض ، ووضعته بين يدى ابنتها قائلة لها : « ان هذا الخمار يا ابنتى من مخلفات الملكة كليوباترة التى ماتت كما تعلمين من لدغة حية سامة لما بلغها خبر انتحار الرومانى ماركوس انطونيوس ٠ وهو هدية منه الى كليوباترة ٠

صنع من أدق خيوط القطن المصرى • وقد سحرت كليوباترة بيدها غزالة بيضاء كانت أليفة ، تروح وتجىء فى القصر ، وصنعت من جلدها هـذا الكيس لتحفظ فيه خمار الحبيب العزيز•••ولما تبعثرت محتويات القصر الملكى ، بعد وفاة كليوباترة وأنطونيوس ، ودخول الرومان الى البلاد فاتحين منتصرين ، وهرب الخدم والوصيفات ، عثرت أمى سيسترا ـ جدتك يا ابنتى ـ على الكيس الثمين ملقى تحت النافذة التى كانت الملكة تجلس أمامها فى صباح كل يوم ••• فأخذته ، واحتفظت به •• وآل الى بعد موتها ••• واننى أضعه الآن وديعة بين يديك ، فحافظى عليه ، وعلى الخمار الذى يضمه فى طياته ••• واذا قدر لك أن تلتقى ، فى مستقبل الايام ، بأحد من أبناء الملكة أو أحفادها ، فسلميه هذه الأمانة ، ولتكن المكافأة أن يذكرنى ويذكر أمى سيسترا بالخير •••

وماتت الأم مرتاحة البال ••• ولكن الابنة لم تنعم بالطمأنينة والسعادة من بعدها ••• فقد مات زوجها أيضا ، بعد أمها بسنتين ، وبقيت وحيدة لا سند لها ولا معين ••• فاعتزمت الرحيل عن مصر ، والتحقت بخدمة قائد رومانى كوصيفة لزوجته ، وأبحرت معهما من الاسكندرية الى روما ••• ومن هناك قررت المجىء الى « يوليا سيزاريا » عاصمة موريتانيا مدفوعة بالرغبة فى لقاء الملك الجالس على عرشها ، « بطليموس » ، ابن الملك « جوبا » من زوجته « كليوباترة سيلانة » ابنة كليوباترة ملكة مصر ، من ماركوس أنطونيوس الرومانى •

أصغى بطليموس الى رواية المرأة المصرية صامتا ، تتماوج على وجهه الانفعالات النفسية التى اختلج بها صدره لسماع تلك التفاصيل المثيرة ، ولما سكتت سيسترا ، سألها بلهفة :

ـ والخمار يا سيسترا ؟

وكأن المرأة كانت تنتظر منه هـذا السؤال • فقد مدت يدها الى صدرها ، وانتزعت الكيس الابيض من طيات ثوبها ، وأخرجت منه الخمار الناصع ونشرته أمام أنظار الملك قائلة :

ـ الأمانة بين يديك يا حفيد كليوباترة •!

فنهض بطليموس من مكانه ، وضم أصابعه على ذلك الأثر العائلى النفيس ، وغمره بالقبلات والدموع ، ثم التفت الى سيسترا قائلا :

ـ سأجعل من هذا الخمار الذى كان ازارا لجدتى ، كفنا لأمى !



يوليوس قيصر
سميت باسمه مدينة يوليا سيزاريا بالجزائر ـ وهى اليوم شرشل

فى سنة ٣٠ قبل الميلاد ، بعد زوال عرش البطالسة فى مصر ، بموت آخر ملكاتهم ، نقل الرومان الى عاصمتهم أبناء كليوباترة من أزواجها العديدين ...

وفى روما ، نشأت « كليوباترة سيلانة » أى كليوباترة « القمر » ابنة ملكة مصر من ماركوس انطونيوس ، وترعرعت تحت أنظار الرومان ، وفى رعاية « أوكتافيا » الزوجة التى هجرها انطونيوس من أجل عدوه اللدود « أوكتافيوس » الذى خلا له الجو فى روما بعد أن تخلص من مزاحميه ، فتبوأ العرش باسم « الامبراطور أوغسطس قيصر » . وقضى على النظام الجمهورى فى روما ، عاصمة الدنيا وسيدتها فى ذلك الوقت .

وأراد قيصر أن تكون كليوباترة سيلانة زوجة لملك موريتانيا « جوبا الثانى » التابع للرومان ، فكان له ما أراد ...

وفى مدينة « يول » المستعمرة الفينيقية القديمة ، التى جعلها جوبا

عاصمة ملكه ، وسماها ، « يوليا سيزاريا » نسبة الى القائد الرومانى الأشهر يوليوس قيصر ، شيد العريس الافريقى لعروسه الحسناء قصرا فى غرب البحر المتوسط ، حاول أن يجعله شبيها بالقصر الذى رأت فيه النور ، وعاشت فيه أمها على شاطىء الاسكندرية ، فى شرق ذلك البحر .

لكن الحياة الزوجية لم تكن مصحوبة بالسعادة والهناء ، بالنسبة الى الزوجين ، بل كان الخلاف بينهما متواصلا دائما ، على جميع الشئون الخاصة والعامة . غير انهما كانا يتظاهران بأنهما على وفاق تام ، تجنبا لتدخل الرومان بينهما ، وما قد يجره ذلك عليهما من متاعب ...

كانت سيلانة دائمة التفكير فى الموت ، تعتقد أن أيامها معدودة ، وأحيانا تتمنى من أعماق قلبها ، أن تنصرم تلك الايام وتريحها من حياة لم تكن لتحقق لها ما كانت تصبو اليه من أمنيات وآمال .

طلبت ذات يوم من زوجها الملك أن يعد لأسرته ضريحا لائقا بها ، وأن يكون الضريح شبيها بالاهرام التى شيدها الفراعنة فى أرض مصر ، لتكون لهم المثوى الاخير.فأجابها جوبا الثانى الى رغبتها ، وأمر بأن يبنى هرم فى ظاهر العاصمة ، وبدأ المهندسون والعمال ينفذون الامر الملكى ، وكانت الملكة نفسها تشرف على سير العمل ...

وماتت سيلانة قبل أن يتم تشييد الضريح . فدفنت فى حديقة القصر الملكى ، ودفنت معها وصيفة لحقت بها من مصر ، وكانت رفيقة صباها ، وتحمل اسما لاتينيا يشبه اسمها الاغريقى « لونا » ومعناها « القمر » .

ولما لحق بها زوجها الملك ، لم يكن الضريح قد أعد بعد ، فدفن جوبا بجوار زوجته سيلانة والوصيفة لونا . وكان الزوج قد بلغ السبعين من العمر . أما الزوجة فقد ماتت وهى دون الخمسين .

وخلف « بطليموس » أباه وأمه على عرش موريتانيا . وكان ذلك فى سنة ١٨ للميلاد وفى عهد تيبريوس قيصر ، ثانى أباطرة الرومان .

من رغبات كليوباترة سيلانة التى استجاب لها جوبا الثانى ، تسمية ابنها البكر « بطليموس » وهو الاسم الذى حمله جميع الملوك من أسرة « لاجوس » المقدونية فى مصر ، من سنة ٣٢٣ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد . وهكذا بعد أن أفل نجم البطالسة فى المشرق ، ومر نحو نصف قرن على وفاة كليوباترة الكبيرة ، عاد النجم فلمع من جديد فى المغرب ، فى عهد سيلانة ملكة موريتانيا ، ثم فى عهد ابنها وخليفتها بطليموس .

أوصاه أبوه ، قبيل موته ، بأن يواصل العمل في بناء الضريح ، لكى يدفنه فيه مع الملكة التى سبقته الى العالم الآخر • وعمل الابن بوصية الأب ، فأنجز البناء الذى جاء فخما رائع المنظر ، يثير الاعجاب بضخامته، ويخلب الألباب بأعمدته العديدة ونقوشه البديعة • وزاده جمالا على جمال غرس الاشجار على طول الطريق المؤدية اليه ، وكثرة الرياحين والازهار من حوله ، على سفح الهضبة التى اعتلى الضريح قمتها •

وما ان انقضت سنتان على وفاة الملك جوبا الثانى ، حتى كان الضريح معدا للغرض الذى شيد من أجله • فقرر بطليموس أن ينقل اليه رفات أبيه وأمه ، فى مشهد يشترك فيه الشعب الموريتانى ، الذى أحبه الملك الراحل وأحبته الملكة ، فقابل حبهما بالولاء والوفاء •

فى ذلك الوقت ، وبينما كان الملك بطليموس يستعد لنقل الرفات الى المقر الاخير ، وصلت الى « يوليا سيزاريا » المرأة المصرية ، حاملة الى حفيد كليوباترة ، خمار جدته الابيض ، فى كيس أبيض مثله •

وتلك المصادفة العجيبة جعلت بطليموس الملك يقول لسيسترا ، وهو يغمر الأثر العائلى النفيس بالقبلات والدموع :

ـ سأجعل من هذا الخمار الذى كان ازارا لجدتى ، كفنا لأمى !

لم تشهد يوليا سيزاريا موكبا كذلك الذى خرج من باب سورها الكبير ، فى سنة ٢٠ بعد الميلاد ، وانساب فى السهل الممتد حول العاصمة، خلف نعشين وضعا على زحافتين تجرهما الجياد المطهمة ، فى طريق تكتنفه الاشجار من الجانبين ، متجها نحو الشرق ، حيث يرتفع « هرم جوبا » المعد ليكون مأوى للنعشين ، اللذين يضمان جثمانى الملك والملكة •

مشى بطليموس ، الابن البار ، فى طليعة الموكب ، ومن حوله أفراد أسرته ورجال حاشيته ، وتبعه الكهنة يرتلون الاناشيد ، والعذارى يلوحن بالاغصان الخضراء ، وأفواج من الضاربين على القيثار والنافخين فى الابواق والقارعين على الطبول ، وكبار القواد وعظماء المملكة ، ثم الشعب الخاشع رجالا ونساء وأطفالا •••

وكان نعش الملكة ملفوفا بالخمار الابيض ، الذى جاءت به سيسترا المصرية من الاسكندرية ، بمثابة كفن يلازمه فى ظلمة القبر • ووضع النعشان فى المكان المعد لهما بين جدران الهرم •

وفى اليوم التالى ، أمر بطليموس بأن ينقل أيضا رفات الوصيفة

« لونا » من حديقة القصر ، ويدفن أيضا فى قبر أعد له بجوار الضريح الملكى ...

أقامت سيسترا ابنة انطونيا وحفيدة وصيفة كليوباترة فى قصرالملك بطليموس معززة مكرمة . وكانت كثيرة التردد على الضريح،حيث تجلس فى عزلة عن النـاس ، وتطلق لخيالهـا العنان ، وتتـذكر الماضى البعيـد والقريب ، وتقارن بينه وبين حاضرها المفعم بالراحة والاطمئنان .

أراد الملك أن يختار لها زوجا من بين فرسان حرسه ، فرجته ألا يفعل ، قائلة انبقاءها بالقرب منه ، وما تجده فى القصر منعطف ورعاية، وما تشاهده من حب متبادل بين الملك وشعبه ، كل ذلك يغنيها عنالسعى الى ما عداه من أنواع السعادة ...

عشرون سنة قضتها سيسترا فى بلاط الملك بطليموس ، وأخذت فى خلالها نصيبها من السراء والضراء ، وحضرت الافراح والاتراح ، ولم يحدث قط ما يعكر صفو علاقاتها بصاحب العرش وأفراد أسرته .

سافرت الى روما مع بطليموس وعادت معه الى يوليا سيزاريا غير مرة ...

وفى احدى تلك الرحلات ــ وكانت الاخيرة ــ هبت العاصفة التى أودت بحياة بطليموس وأطاحت بعرشه .

ففى سنة ٣٧ للميلاد ، جلس على عرش الامبراطورية الرومانية ، ثالث قياصرتها ، كاليكولا السفاح المجنون . فناصب ملك موريتانيـــا العداء ، بدون سبب مبرر . وحاول بطليموس عبثا أن يتفادى مغبة ذلك العداء ، ولكن مساعيه ومساعى أصدقائه من عظماء الامبراطـــورية باءت بالفشل . وفى سنة ٤٠ للميلاد ، أمر كاليكولا بقتله فى مأدبة صاخبة . ودفنت جثته فى مكان مجهول .

وعادت سيسترا مع رفاق الملك المقتول الىعاصمة موريتانيا ، حيث ساد الاضطراب وانتشر الفزع ، وشعرت المرأة بأن حيـــاتها قد انتهت بانتهاء حياة الملك الذى غمرها بعطفه وأحاطها بحمايته .

وفعل الرومان فى موريتانيا ما فعلوه من قبل فى مصر ، يوم جعلوا من البلاد اقليما من أقاليم امبراطوريتهم الشاسعة . وهربت الملكةأورانيا زوجة بطليموس الى الجبال واختفت .

وفى ذات يوم ، عثر الزائرون عند هرم جوبا ، على سيسترا المصرية

جثة هامدة • فأشفقوا عليها بعد موتها ، وحفروا حفرة بجــوار القبر ، ووراروا فيها جثة المسكينة •

وظلت رياح الخوف تعصف بشعب موريتانيا أكثر من سنة ، ولم تهدأ الا بوفاة القيصر المجنون كاليكولا فى سنة ٤١ للميلاد •

وتعاقبت الأجيال ••• وتعاقب معها الغزاة والفاتحون • جاءبعضهم من الخارج ، وأقبل بعضهم من الصحراء ، وفقدت يوليا ســـيزاريا مع الزمن مكانتها ، وتضـــاءلت أهميتها ، وتداعت قصورها وهيـــاكلها ، وتساقطت أعمدتها ، وهجرها فريق من سكانها الى حيث يتـــوافر لهم الأمان والاطمئنان •

وفى القرن الهجرى الاول ، والقرن الميلادى السابع ، طوى العرب تحت جناح دولتهم الأيسر الساحل الافريقى من الشرق الى الغرب • ولما حلوا فى يوليا سيزاريا ، سموها « قيصرية » ثم تغير الاسم الى «شرشال» حتى استقر فى النهاية على ما هو فى أيامنا هذه : « شرشل » •

وأما موريتانيا ، فقداختفى اسمها من الاذهان ، وأصبحت معالوقت اقليما من أقاليم « الجزائر » العربية •

فاذا خرجت من بلدة شرشل ، واتجهت الى الشرق ، أو خرجت من مدينة الجزائر واتجهت الى الغرب ، ثم جنحت قليلا الى الجنوب ، وسرت فى سهل «متيدجة» فانك تصل فى أحد أطرافه الى هضبة صـغيرة يبلغ ارتفاعها نحو مائتين وستين مترا ، وترى فوق تلك الهضبة ، بنــاء قديماً متهدما ، تختلط حجارته بالاتربة ، ولا يزيد ارتفاعه على ثلاثين مترا ، وقطر دائرته على ثلاثة وستين مترا ، وحول قاعدته يمتد صف منالاعمدة يبلغ عددها الستين ، وله أربعة أبواب يواجه كل منها جهة من الجهــات الاربع ، وفى داخله دهاليز خالية خاوية •

والبناء يحاكى فى شكله الاهرام المصرية •

ذلك هو هرم جوبا الثانى ، وضريح ملوك موريتانيا الذى حوى فى جوفه جثمان الملك وزوجته ابنة كليوباترة وماركوس انطونيوس ،والذى كانت الاشجار والرياحين والازهار تغطى سفوح التل الذى شيد الهرم على قمته •

ولو سألت : « ما هذا البناء ؟ » لأجابك الذين تسألهم : « هذا قبر الرومية » •

وكلمة « الرومية » هنا معناها « المسيحية » فمنذ أن اشتبك العرب المسلمون فى حروب طاحنة مع دولة الرومان الشرقية ، و « الروم » أصحاب بيزنطة ، أصبحت كلمة « رومى » فى عرفهم مرادفة لـكلمتى «مسيحى» و « نصرانى » وظلت تؤدى هذا المعنى مدة طويلة من الزمان ٠

وقد راجت فى الجزائر ، وفى وقت لا يمكن تحديده ، اسطورتان اثنتان ، حول هرم جوبا :

الاولى تقول : بأن ذلك البناء كان مثوى لاميرة مسيحية دفنت فيه مع كنوزها الكثيرة ، ولهذا عرف البناء باسم « قبر الرومية » ٠

والثانية تقول : بأن ساحرا من الغرب تمكن من فتح بابالضريح والاستيلاء على كنوز الرومية ٠

وليست الاسطورتان غير رواية للحقيقة مشوهة ، تناقلتها الالسنة على كر الاجيال ، فحورتها جيلا بعد جيل ٠٠٠

فبالبناء ضريح لملكة وملك وثنيين سطا عليـــه اللصوص فنهبـوا الكنوز التى دفنها بطليموس مع رفات أبيه وأمه،ولم يتركوا حتىللنعشين وللعظام آثرا ٠٠٠

وحط الدهر على البناء وعبثت به أعاصير الطبيعة ، فلم يبق اليوم من رونقه السابق ، وروعتهالماضية ، غير تلك الكومة منالحجارة والاتربة والاعمدة المتداعية ، التى يسميها الناس «قبر الرومية» وهو اسم لاينطبق على المسمى ٠٠٠

ابن القمر

ضحك له الحظ ثم عبس فى وجهه ، فارتفـــع ثم هوى وراح ضحية الغدر والطمع !

كانت ليلة مظلمة ممطرة ، وأمواج البحر المتلاطمة الهائجة يسمع لها من بعيد هدير مزعج متواصل ، والبرق يشق سواد الليل بلمعانه ، تتبعه الصواعق والرعود بهزيمها المرعب ، والملكة « أورانيا » متربعة على كومة من الوسائد ، أمام النافذة التى لا ترى من خلالها شيئا ، وتلقى بين لحظة وأخرى نظرة ملؤها الحب والحنان على زوجها الملك ، الحائر فى القاعة الفسيحة ، كأسد فى قفص ، يروح ويجيء مهموم البال شارد الفكر .

ومزق الرجل الصمت فجأة ، سائلا : « أورانيا .. أتعتقدين حقا أن الامبراطور « كاليكولا » يضمر لى شرا ، وأن دعوته تنطوى على مكيدة أو خيانة ؟ » .

كان صوت الملك متهدجا ونبراته تنم عن اضطراب نفسه ، ولكن الملكة أجابته بتغريد شجى كغناء البلبل :

ـ بطليموس ، حبيبى .. ما أردت بما أفضيت به اليك من رأى غير تحذيرك من التفاؤل والتواكل ، لا اثارة المخاوف فى نفسك ، وحملك على الوقوف موقفا لا يليق بأصحاب التيجان .. ومهما يكن من أمر ، فلابد لك من تلبية دعوة الامبراطور ، والذهاب الى روما ، نزولا على رغبته ،لان ملكنا تابع ملكه ، وسلطاننا مستمد من سلطانه .. ولكن ـ هناك ـ كن يقظا .. ولا تثق بأحد من أولئك الرومانيين المخاتلين ، واحترس من كل ما يجرى حواليك ، ولا تنتقل من مكان الى آخر بدون أعوانك الذين سيرافقونك فى هذه الرحلة الخطرة .

ـ أنت على حق فى كل ما ذهبت اليه ..

ـ انك لا تجهل يا بطليموس ان «بورفورا» الحسناء التى أهديناها للامبراطور « كاليكولا » اجابة لطلبه ، ليست فى الواقع غير جاسوسة لنا فى بلاط قيصر ، وهى توافينى بلا انقطاع بكل ما يحدث فيه ، وما يقال، وهى أيضا التى أرسلت تحذرنى من مظاهر الصداقة والمحبة التى يبديها لنا « كاليكولا » فى هذه الايام ، فان هـذا الامبراطور السفاح المجنون فى حاجة الى المال ، كعادته ، وفى سبيل الحصول عليه ، لن يتردد فى الاقدام

على أى عمل من أعمال العنف : التزوير ، السرقة ، الاكراه ، القتــل ٠٠ فلنحترس !

ــ صدقت ، لنحترس !

بعد انهيار حكم البطالسة فى مصر ، بانتحار آخر ملكاتهم فيهــا ، كليوباترة عشيقة القائد الرومانى أنطونيوس ، نقل أبناء الملكة وأفراد أسرتها الى روما ، حيث تولى أمرهم الامبراطور أوغسطس قيصر وخلفاؤه ٠٠ وكان لكليوباترة ابنة من أنطونيوس عرفت باسم «كليوباترة سيلانة» ومعناها «القمر» باليونانية ، زفت الى «جوبا الثانى» ، ملك «موريتانيا» على الساحل الافريقى ، فلما توفى فى سنة ١٨ بعد الميلاد ، خلفه عـــلى العرش ملــكا على « موريتانيا » التى ضمت « نوميديا » أيضــا ، ابنــه « بطليموس » حفيد كليوباترة وانطونيوس من ابنتهما « سيلانة » ٠

وقد حافظ الملك الجديد على صداقة الرومانيـــين الذين أقروه فى ملكه ، وظل فى جميع أعماله وفيا لهم ، فساعدهم على اخماد ثورة الافريقيين بقيادة « تكفاريناس » فى عهــد الامبراطور « تيبيروس » ، ولــكنه بدأ يوجس منهم خيفة منذ أن اعتلى عرش القياصرة رجل قاسى القلب ، شاذ الشعور ، مختل العقل ، هو « كاليكولا » الفاسق الفاجر ، الذى حكم روما فى سنة ٢٧ للميلاد وهو فى الخامسة والعشرين ، والذى كان فى حاجة دائمة الى المال ، يأخذه من الافراد والجماعات والشــعوب بلا وازع ولا حساب ، ليملأ به خزائن الدولة ، ثم يغترف منه ابضا ملء قبضتيه لينفقه فى أعماله الجنونية بلا وازع ولا حساب !

وقد بلغ الامبراطور السفاح ان فى حوزة ملك « موريتانيا » أموالا طائلة ، وأكداسا من الذهب والفضة ، وأكواما من الحلى والجواهر ، وهى ما تبقى من كنوز البطالسة التى نقلت من الاسكندرية يوم رحلت عنهــا الاسرة المالكة وكان هذا حقا ٠٠٠ لان « بطليموس » كان فى الواقع أغنى ملوك عصره ، بل أغنى من قيصر نفسه ، المتربع على عرش روما ، والذى لم يكن بطليموس غير واحد من عشرات الملوك التابعين له ٠٠

وكانت الملكة « أورانيا » تعنى عناية خاصة بصيانة ثروة زوجهـــا الهائلة ، احتياطا منها للمستقبل ، وخوفا من أن تمتد يد القدر بسوء الى عرش « موريتانيا » وأصحابه ، كما امتدت من قبل الى عرش مصر وأصحابه ، ولهذا أنشأت مخابىء حصينة بمدينة تاماكا ، اخفت فيهـــا ما تملك من جواهر وحلى وفضة وذهب من كنوز البطالسة الباقية ، وجعلت تأخذ منها ما تقضى الضرورة بأخذه ، وتكتم ما استطاعت سر المخابى عن أســـماع



شارع في تطوان القديمة
وتطوان او تطاون في منطقة الريف
كانت من معاقل ملوك موريتانيا باسم « تاماكا »

الناس وأبصارهم ٠٠ فلما وصل النبأ الى « كاليكولا » ، القيصر المجنون المتعطش الى المال تعطشه الى الدماء ، جعل يرسم الخطط وينصب الشراك للاستيلاء عليها ٠

وكان من بين الاساليب التى لجأ اليها لاستيفاء معلوماته عن كنوز البطالسة ، جلب عشرات من القواد ورجال الحاشية والخدم والعبيد من

موريتانيا الى روما لالحاقهم بخدمته ، واغداق نعمه عليهم ليستطلع منهم أخبار مولاهم بطليموس ومولاتهم أورانيا ·· وقيل له ان للملكة وصيفة مصرية الأصل ، هي موضع ثقة الملكة ومستودع أسرارها ، فأرسل الامبراطور يطلب من بطليموس اهداءه اياها لتكون في خدمة زوجته وأخواته ، ولم يجرؤ الملك على رفض هذا الطلب،فافترقت الملكة «أورانيا» عن وصيفتها على مضض ، ولكن بعد أن تواطأت معها على أن تكون في قصر الامبراطور ، عينا لها وأذنا ، وأن تنقل اليها كل ما يصل الى علمها من أعمال قيصر وأقواله ونواياه ·

وذهبت الوصيفة « بورفورا » الى عاصمة الامبراطورية العظيمة ، ولكنها بدل أن تكون جاسوسة لقيصر على مولاتها ومولاها ، أصبحت جاسوسة لهما على قيصر وزوجته وأخواته ·· وهي التي أرسلت تخبر « أورانيا » بطمع الامبراطور في ثروة البطالسة ، ورغبته في الاستيلاء عليها ، وتحذرها مما تخفيه دعوة « كاليكولا » لزوجها بطليموس للذهاب الى روما ، من أهداف قد تكون وخيمة العاقبة على الضيف في كنف مضيفه ! ·· وهذا ما جعل الملكة أورانيا تمعن في التفكير ، وتباحث زوجها في أمر تلك الدعوة ، وتلح عليه بأن يصطحب معه جماعة من أعوانه المخلصين ، ويكون على حذر من كل حركة وسكنة تبدو من الامبراطور المجرم الماجن ··

ورأى الزوج والزوجة أن لا سبيل الى التهرب ، لان في هذا ما قد يثير غضب قيصر وشكوكه ، فيعمد الى القوة والعنف ، ولا طاقة لموريتانيا على الوقوف في وجه روما ومناصبتها العداء · فسافر الملك بطليموس مع حاشية من أبعد رجاله تفانيا في الاخلاص له ، وحل ضيفا على الامبراطور كاليكولا ، في قصر أعد خصيصا لحفيد كليوباترة ورفاقه الموريتانيين ، حلفاء روما الكرام الأعزاء !

وأمر قيصر بأن تعد العدة لرحلة في بلاد « غاليا » ، وأن يكون بطليموس ورفاقه في معيته ، وكانت الرحلة سلسلة متواصلة من الاعياد والمهرجانات والحفلات والمغامرات ، ثبت فيها جميعها للملك الموريتاني أن الامبراطور الروماني مجنون لا شك في جنونه ، سفاح لا يعرف قلبه الشفقة ، ولا يتردد في ذبح ضحاياه بيده ، ويتمنى « لو كان لشعب روما كله رأس واحد ليقطعه بضربة واحدة ! » ·

واستقر المقام في النهاية للامبراطور ورفاقه في مدينة « ليون » حيث أعد قصر الحاكم لمأدبة من تلك المآدب التي كان « كاليكولا » يتفنن

فى اقامتها ، ويأمر بأن توضع فيها على الموائد أمام الضيوف ، الخرفان والثيران والخنازير البرية والجمال المجلوبة من الشرق ، كاملة كما هى وتقدم فيها الخمور فى قرب من جلد الحمير ، وبعد أن يهوى المدعوون الى مرتبة البهائم ، يرفع قيصر عصاه الذهبية التى لم تكن تفارقه ، ويشير الى واحد بعد آخر من الخدم والعبيد ، وأحيانا الى الجوارى من النساء ، أو الى أحد المدعوين اذا تراءى له ذلك ، فيثب الحراس على من تصيبه تلك القرعة الهوجاء ، ويفصلون رأسه عن جسده ، ويلقون بهذا الرأس على الموائد وسط الضحك والتصفيق والهتافات لقيصر بطول العمر !

وهذا ما حدث فى تلك الليلة ، فى قصر الحاكم الرومانى بمدينة ليون : فقد أكل الامبراطور ومدعووه وشربوا وسكروا ، وبدأ الحراس يلبون اشارة مولاهم ، فيذبحون ويطوفون بالرءوس الحمراء ويضعونها فى الاطباق بين أكوام اللحوم والفاكهة ...

وفى غمرة تلك المادبة الجهنمية ، شعر الملك بطليموس بيد تمسك بكتفه ، وبأنفاس حارة تداعب وجهه ، وسمع صوتا عذبا يهمس فى أذنه قائلا : « مولاى لا تلتفت الى وأنا أستبدل الاطباق والاقداح بغيرها ... أنا بورفورا ... لماذا جئت الى هنا ؟! اهرب .. قبل فوات الوقت ... فى وسعك أن تنتحل أى عذر للخروج من هذه القاعة ... وعلى الباب.. ثلاثة من النساء سيساعدنك على الهرب ... ان كاليكولا عازم على ألا يدعك تخرج حيا من هنا ! » .

قالت الفتاة هذا بلهجة ثابتة ، وكلمات بطيئة ، بدون أن يفطن اليها احد ، على أمل أن يعمل سيدها بطليموس بنصيحتها ، وينهض لساعته من مقعده ، وينجو بنفسه من موت مدبر له .. ولكن بطليموس الملك كان ثملا مثل كاليكولا الامبراطور ، ومثل غيره من المدعوين جميعا ، من الرومانيين والموريتانيين على السواء ! فبدلا من أن يفعل ما أوصته به الوصيفة الوفية ، رفع رأسه ووقف مترنحا ، وأرسل فى فضاء القاعة قهقهة عالية ، وقال مخاطبا كاليكولا :

ـ أسامع أنت يا قيصر ما تقوله هذه الفتاة ؟ أسامع أنت ؟ تقول انك عازم على قتلى !.. انها مجنونة يا قيصر .. وهى التى تستحق الموت لانها تفترى على مولاها ... انها ...

ولكن « كاليكولا » لم يترك ضيفه الملك يسترسل فى هذيانه : فوثب من أريكته وثبا ، وأشار الى الفتاة فاطبق عليها الحراس وأخمدوا انفاسها وجروا جثتها بين الموائد الى حيث انتصب قيصر واقفا ، وعيناه

تقدحان شررا ، والزبد يسيل من فمه وهو يقول مخاطباضيفه الموريتاني: « صدقت يا بطليموس ، انها تستحق الموت ‥ ولقد لقيت ما تستحق ، كما ترى ‥ ولكن ‥ صدقت بورفورا أيضـــا أيها الملك ، فيما ذهبت اليه ‥ »

وباشارة من الامبراطور الخليع السكران ، أطبق الحراس أيضا على بطليموس الملك ، ومزقوا جسده بالخناجر والسيوف ‥

كان ذلك في سنة ٤٠ للميلاد ، وقد أصـــدر الامبراطور كاليكولا أمره ، بعد مصرع غريمه ، بجعل مملكة موريتانيا ونوميديا المتحدة ولاية رومانية .

ولما بلغ الملكة « أورانيا » خبر الفاجعة التى حلت بها ، أقسمت ألا تدع الامبراطور قاتل زوجها يشفى غليـله منها ، ويشبع نهمه الى المـال بالاستيلاء على ثروتها ، ففرت من عاصمتها الى الجبال القريبة،واعتصمت فيها ، وقد مرت شهور حاول فيها رسل « كاليكولا » الاتصـــال بالملكة الهاربة ، والبحث عن الكنوز المخبأة ‥ ولكن عبثا ‥ حتى اذا ما انقضى عام واحد على مصرع « ابن القمر » سقط الامبراطور نفسه قتيـلا بأيدى أعوانه ، فاستراح العالم من شروره ‥

أما « أورانيا » الموريتانية وكنوزها ، فقد أسدل عليها ســـتار كثيف من النسيان : الى أين ذهبت ؟ وأين ماتت ؟ وكيف أخفت كنوزها؟

لقد ماتت دون أن تطلع أحدا على سرها ، ولم يتكلم أحد من الذين لازموها في المرحلة الاخيرة من مراحل حياتها ، فى الجبال الشـاهقة ، المشرفة على « تاماكا » ‥

وما « تاماكا » ، قلعة موريتانيا القديمة ، غير « تطوان » عاصمة الشمال فى المغرب العربى الاقصى اليوم ‥

فلو بحث الباحثون ، ونقب المنقبون فى جبال تطوان بالمغـــرب ، لقادتهم الصدف الى العثور على رفات زوجة «ابن القمر» بين أكداس الذهب والحلى والجواهر التى دفنت معها !

ثورة على روما

« الحرية مع الفقـر والشقاء
خير من العبـــودية مع الغنى
والرخاء !

سكتت المرأة بعد أن أفرغت ما فى جعبتها من أقوال وأدلة لاقنــاع الرجل بأن يعمل فى الحال بنصيحتها ٠ وسكت هو بعد أن وافق عــلى رأيها ، وناقشها لا فى صواب ذلك العمل الذى جاءت تطلب منه القيــام به ، بل فى الوسائل التى يمكن الاعتماد عليها لتحقيقه ٠٠٠

فكر « تكفاريناس » طويلا ٠ ومالت عليه « سيفا » وأسندت رأسها على كتفه ، واحاطت عنقه بذراعها العارية ، وتنهدت مرة بعد مرة ، فخيل له ان تنهداتها ليس لهاغير معنى واحد : « اما الاصغاء الى نصيحتهــا واعلان الثورة ، واما القضاء على كل أمل فى التحرر من النير الرومانى فى بلاد نوميديا الافريقية ! » ٠

ولم يطل التفكير طويلا ، فقد اعتزم « تكفاريناس » أن يعمل ٠ولم يكن اعتزامه نتيجة اقناع المرأة له فحسب ، بل كان أيضا تلبية لنــداء خفى ظل الرجل يسمع هاتفه يهيب به آناء الليل وأطراف النهار ، ويطن فى أذنيه مرددا بلا انقطاع : « الحرية يا تكفاريناس !٠٠ الحرية لوطنك نوميديا ، حتى ولو كانت مصحوبة بالفقر والشقاء ، خير ألف مرة من العبودية فى ظل الحكم الاجنبى المصحوب بالغنى والرخاء ٠٠٠ »

ثم يردد الصــوت الخفى أيضــا : « يجــب ألا تكتفى بالتفــكير فى نفسك وحدها يا تكفاريناس ، بل عليك أيضا أن تفــكر فى وطنك ٠٠٠ أنت جندى فى جيش روما ، وبلادك مستعمرة رومانية ٠٠٠ وخير لك ألف مرة أن تكون ثائرا فى الجبال لتحطيم القيود التى تكبل حرية بلدك من أن تبقى جنديا تتلقى الاوامر من جلاد بلدك ! »

أصوات خفية ، أضيف اليها الآن صوت آخر ، ليس خفيا ، بل هو مسموع ترن نبراته رنينا عذبا فى الاذن ، وينطلق من فم جميل ، هو فم تلك المرأة الساحرة ، التى جاءت تقنع تكفاريناس بأن ينفذ ما يجول فى خاطرها وفى خاطره أيضا ٠٠٠

الثورة لتحرير نوميديا من حكم الرومان ، ثم مواصلة القتــال لتحرير افريقية كلها ، وضمها فى دولة تمتد على الساحل الشمالى للبحر المتوسط ، من حدود مصر شرقا ، الى مياه المحيط غربا ٠٠٠

وتكفاريناس واحد من أبناء نوميديا ، استهوته مظاهر البذخ فى روما ، وخدعته الوعود التى بذلها له الحكام الرومانيون فى بلاده، فانخرط فى سلك الجندية ، وأصبح خادما من خدم روما ، ومحاربا فى صفوف جيشها ، ومنفذا لارادتها فى بلاده ...

أصبح سلاحا من أسلحة الغريب التى ترغم القريب على الخضوع والخنوع ..

وعين مشرفا على تنظيم حلقات المصارعة فى روما ، فهاله ما رآه من ظلم وقسوة واستهتار بالحياة. وأثار نقمته وغيظه استقدام بعض مواطنيه من افريقيا ليشتركوا فى تلك الحفلات الصاخبة الهمجية التى كان المصارعون يقتتلون فيها لارضاء قيصر وشعبه . وارواء تعطش الرومانيين الى الدماء المسفوكة !

وتساءل تكفاريناس : « أيثور هؤلاء المصارعون يا نرى ويحملون السلاح معى لمحاربة الطغاة ؟ »

رأى عذاب مواطنيه عن كثب : رآهم يئنون من وطأة العبودية فى وطنهم الافريقى ، ورآهم يموتون فى ساحات المصارعة بروما ، فتألم ..

واذا به ذات يوم يسمع ذلك الهاتف الذى أهاب به أن يثور ليرفع الظلم عن أولئك المواطنين ..

أما هى ، المرأة التى ذاع صيتها فى نوميديا ، وانتقل الى روما فاقتحم القصور الفاخرة ، وبلغ مسامع الامبراطور ، فهى من بنات نوميديا أيضا ، مثل تكفاريناس . ومعروف عن أسرتها انها جاءت فى قديم الزمان من جزيرة العرب ، واستوطنت جبال « أوريس » فى بلاد نوميديا ، وانها هى « سيفا » كانت فى وقت من الاوقات وصيفة الامبراطورة فى قصر « تيبيريوس قيصر » بروما ، ثم هربت من عاصمة الامبراطورية وعادت الى وطنها ، على أثر مصرع أفراد أسرتها جميعهم ، فى عراك مع الجند الرومانى .

قتل الرومانيون أباها ، وأمها ، واخوتها الاربعة ، واحرقوا مزرعتهم الصغيرة فى سفح الجبل على مقربة من « سيرتا » عاصمة نوميديا ...

وهربت سيفا من روما عائدة الى بلادها وفى صدرها حقد يغلى ، وفى رأسها فكرة تسعى لتحقيقها ...

ووجدت تكفاريناس فى طريقها فادركت فى الحال انه الأداة التى



المصارعة حتى الموت في روما الأسرى والعبيد يموتون لكى يضحك قيصر ويلهو شعبه !

أعدتها لها السماء ، لكى تحقق بها الفكرة ، وتشفى غليل الحقد فى نفسها !

وتوالت الاحاديث بين الجندى الراغب فى أن يكون زعيما لبلاده وقائدا لثورة ، والفتاة الساعية الى الانتقام لأهلها والثأر للدم المسفوك .

وتم الاتفاق بين الاثنين ، لان كل واحد منهما جاء للآخر بما كان ينقصه .. وهكذا تتم الثورات : كل واحد من الذين يشتركون فيها يقدم شيئا مما تعتمد عليه القيادة لضمان النجاح ..

كانت سيفا فى حاجة الى قائد يسير بالمجاهدين الى الميادين فوجدته فى شخص تكفاريناس ...

وكان تكفاريناس فى حاجة الى المادة التى لابد منها لتغذية الثورة بالسلاح والمؤن ، فجاءته بها سيفا ..

هربت من قصر تيبيريوس قبصر ولكنها حملت من الجواهر والحلى والحجارة الكريمة ما يكفى لشراء كل ما يوجد فى افريقية من أسـلحة ، وكل ما يحفظ من مؤن !..

وقالت لتكفاريناس :

ـ أنت فى حاجة الى المال وها هو ذا المال بين يديك ..

ووضعت عينيها أمام عينيه ، وشفتيها أمام شفتيه ، وأطلقت عبارة الاغراء الاخيرة من فمها العذب :

ـ وأنت فى حاجـة الى الحب ، وها هو ذا الحب أيضــا يطوقك بذراعيه !..

وكانت القبلة الحارة التى مهر بها الرجـل والمرأة عهدهما ، فطبعا الحب المتبادل بطابع الثورة ، وطبعا الثورة بطابع الحب ...

أصبحا عشيقين قبل أن يصبحا ثائرين ...

واختفى تكفاريناس عن الانظار ، واختفت معه سيفا ...

وفجأة ، هبت العاصفة ، وارتفعت الصيحات فى أنحاء نوميديا كلها فى الجبال وفى السهول على السواء : صيحات الثائرين وقد تدفقوا من كل فج وصوب على مرابط الجنود الرومانيين ، وصيحات الجنود الذين فوجئوا بانفجار ما كان أحد منهم ينتظره !

أعد تكفاريناس عدته بمهارة فائقة ، وساعدته فى ذلكسيفا الفاتنة الساحرة .

توافر المال لدى الرجل ، بما حملته اليه المرأة من ثروة سرقتها من الرومان كما سرقها الرومان من البلدان التى يحتلونها ، وبتوافر المال ، توافرت الاسلحة ، وتدفقت المؤن ، وتزايد عدد المقاتلين يوما بعد يوم ..

وانضم اليهم مئات من الأسرى والعبيد الذين جاء بهم تكفاريناس من روما ، وبينهم عدد كبير من المصارعين !

طافت سيفا فى المدن والجبال والحقول . فى الحواضر والبوادى . على ساحل البحر وفى داخل البلاد . داعية مواطنيها الى القتال فى سبيل

الحرية المنشودة والكرامة الغالية . فلبى السكان فى نوميديا كلها نداء المرأة الداعية الى تلك المثل العليا ..

وانضم المتطوعون الثائرون الى الجنود الذين تمكن تكفاريناس من اقناعهم بوجوب الاشتراك فى الثورة ، لانها ثورة المحكوم على الحاكم ، ثورة القريب على الغريب ، ثورة المواطن على الاجنبى الدخيل ، ثورة نوميديا على روما ... بل ثورة كل ولاية رومانية على العاصمة الطاغية !

وكان بين أولئك الجنود رجال من مصر ، ومن سورية،ومن فينيقيا، ومن بين النهرين ، فضلا على النوميديين والليبيين وغيرهم من سكان افريقية الخاضعة للحكم الرومانى ...

من أولئك جميعا ، تألف جيش الثورة التى قادها تكفاريناس مدة ثمانية أعوام ، والتى أوشكت أن تقوض أركان الامبراطورية وتزعزع كيانها ..

نشبت الثورة فى سنة ١٦ وظلت مشتعلة الى سنة ٢٤ للميلاد،وفى تلك الثورة ، حاربت كتيبة من الفارسات بقيادة سيفا ، فأخذت المرأة نصيبها مع الرجل ، من القتال فى سبيل الوطن ...

وفى المكان الذى اتخذه قائد الثورة مركزا لقيادته ، جمع أعوانه المقربين وزعماء القبائل ، وقطع الجميع على أنفسهم « عهد الدم » بأن أقسموا فيما بينهم على أن يواصلوا القتال حتى يبلغوا الغاية المنشودة أو يضحوا فى سبيلها بالحياة . ووقفت بينهم « سيفا » خطيبة القائد ، وقدمت لهم وعاء فيه دم فائر ، وطلبت منهم أن يغمسوا أيديهم فيه توكيدا للعهد المقطوع ، وللقسم الذى ربطوا أنفسهم به .. ... وهذه عادة قديمة لا تزال الى أيامنا هذه حية فى بعض أنحاء الشرق الادنى وافريقية الشمالية ...

وانطلق الثائرون الى ميادين القتال عملا بذلك العهد الذى قطعوه !

قسم تكفاريناس جموعه الى كتائب وجماعات قليلة العدد سريعة الحركة ، وراح يهاجم الرومان فى كل مكان وفى آن واحد ...

وأرسلت روما لمقاتلة الثوار أشهر قوادها ، منهم فوريوس كاميليوس، ولوسيوس برونوس ، وجونيوس بليزوس ، وغيرهم من دهاة الحرب وأبطال الميادين ...

غلبهم تكفاريناس أو غلبوه · وكان بعد كل هزيمة يتراجع الى جبال أوريس ثم ينطلق منها من جديد ليهاجم ويقتحم وينتصر ...

جرح خمس مرات وهو فى طليعة الصفوف ، ووقع مرة أسيرا فى أيدى كتيبة رومانية ولكنه أفلت من الأسر بمعجزة · وجرحت سيفا مرتين أمام أسوار « سيرتا » العاصمة التى كانت دائما تحرض الثائرين على أخذها عنوة من الرومان ...

وهال الامبراطور تيبيريوس أن تعترى الامبراطورية تلك الهزة العنيفة ، وأن تعجز جحافله عن قمع ثورة « الافريقيين » واعادة المحكومين الى حظيرة الطاعة ، فأصدر أوامره بأن تجرد الدولة جميع قواتها ، وأن تنفق الاموال بلا حساب ، ويرسل الجنود الى الموت فوجا بعد فوج ، حتى يفنوا جميعا وتجف خزينة المال ــ أو يؤتى بقائد الثورة الافريقية ذليلا مكبلا بالحديد !..

ويؤتى معه بالمرأة التى عدها الامبراطور محرضة على تلك الثورة الخطرة !

وكان فى النهاية للامبراطور ما أراد · وتغلبت الكثرة على القلة ، ووفرة السلاح والفن العسكرى على الشجاعة المفتقرة الى العلم والنظام..

عهد الامبراطور بقيادة الجيوش الرومانية الى أشهر رجال الحرب فى ذلك الوقت · القنصل « دولابيلا » ·

ودولابيلا هو الرجل الذى شاءت الاقدار أن تخمد ثورة تكفاريناس على يده ، فى سنة ٢٤ للميلاد ، أى بعد نشوبها بثمانية أعوام !

كان الثائرون يحاصرون مدينة « توبرسيكوم » فأرغمهم دولابيلا على فك الحصار، وهزمهم فى معركة دموية هائلة، اضطر بعدها تكفاريناس الى التراجع لاعادة تنظيم جيوشه ...

وبالقرب من مدينة « أوزيا » لحق به الرومانى العنيد ، وهزمه مرة أخرى ، فتراجع تكفاريناس ثانية ولكن صفوف رجاله كانت قد تضعضعت ·

عبثا حاولت سيفا ، فى تلك المعركة الفاصلة ، أن تحمل الثائرين على الصمود فى وجه الرومان ، بأن تهجم مرة بعد أخرى على رأس كتيبة النساء المحاربات ...

فقد عجز الافريقيون وحلفاؤهم عن الصمود · وشعر تكفاريناس بأن النهاية قد اقتربت ، وانه واقع لا محالة فى أيدى أعدائه الرومانيين·

ونادى رفيقته في الجهاد ، وشريكته فى السراء والضراء ...

ولبت سيفا نداءه ...

تراجع الثائرون عائدين الى جبالهم بعد أن تكاثرت عليهم جموع الرومان ...

وبعد المعركة ، طاف القائد دولابيلا وأعوانه فى أنحاء الميدان حيث تكدست الجثث ...

وبين تلك الجثث ، عثر الرومانى على الجثتين اللتين قيل له انهما جثتا تكفاريناس وصديقته سيفا ...

كانت الجثتان متعانقتين ...

وكانت الدماء تتدفق من جرحين عميقين ، جرح في صدر الرجل ، وجرح فى صدر المرأة ...

عمد تكفاريناس الى الانتحار خوفا من الوقوع فى الأسر ...

وجارته سيفا فيما أقدم عليه ، فطعنت نفسها بالخنجر الذى مزق به حبيبها صدره ...

ميتة واحدة ، بخنجر واحد ، فى مكان واحد ...

واختلطت دماء الشهيدين وامتزجت على أرض واحدة ...

عهد الدم نفذ الى آخره !

لم تسفر ثورة تكفاريناس عن تحرير نوميديا ، ولكنها كانت مثلا رائعا ضربه الثائر البطل لطلاب الحرية التى هى دائما وفىكل مكانوليدة الثورات ...

ثورة تخمد ... وثورة تنجح !

فشل يعقبه فوز فى الغد !

ونوميديا التى ثار تكفاريناس ، وساهمت معه سيفا ، من أجل تحريرها ، تدعى اليوم « الجزائر » .

وعاصمتها « سيرتا » هى اليوم « قسنطينة » .

أما جبال « أوريس » فلا تزال تحمل اسمها ، ولا تزال الى أيامنا

هذه موطن البطولة ، والبركان المتأجج دائما بنيران الثــورات ••• فى سبيل الحريات •

وفى وهادها ووديانها انطلقت الرصاصات الاولى فى ثورة الشعب الجزائرى ، فى سنة ١٩٥٤ •

وهى الثورة التى انتهت بنصر مبين ، وباسترجاع الاســـتقلال والسيادة من غاصبيهما !

قديس وحورية

أخذ الافرنج من عرب تونس
قديســـا ميتا ، وارســـاوا
اليهم حورية حيـــة ! . . .

بلغ رسل الامبراطور شرلمان المرحلة الأخيرة من المراحل الشاقة التى تجشموا خلالها المتاعب برا وبحرا ، للوصول الى القيروان ، وأداء المهمة التى عهد بها اليهم العاهل العظيم ، وكانوا أكثر من عشرين شخصا بينهم ثلاث نساء وبعض الرهبان ممن سبق لهم أن زاروا أرض افريقيا من قبل ·

وقوبل ذلك الوفد الافرنجى فى الامارة العربية بالترحاب والاكرام. فان صاحب افريقية فى ذلك الوقت ، ابراهيم بن الأغلب ، كان على أحسن ما يكون من الود والوفاق مع شرلمان امبراطور الغرب ، المالك فى فرنسا وجرمانيا وايطاليا ، بالرغم من اشتباك الافرنج وعرب الاندلس فى حروب مستمرة لا تنقطع حلقاتها ·

وكان العباسيون المالكون فى بغداد ، يحاولون منع فلول الامويين وأنصارهم من بسط سيطرتهم على اطراف الدولة العربية فى الغرب ، ولهذا فقد عهد هرون الرشيد فى سنة ١٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد ، الى ابراهيم بن الاغلب الجزائرى ، بالولاية على « افريقية » التى كانت تضم فى ذلك الوقت جزءا من الجزائر ، والقطر التونسى وطرابلس وبرقة . وكان هرون الرشيد يأمل أن يظل ابن الاغلب وخلفاؤه على ولائهم للعباسيين ، بعد أن استقل الأدارسة فى المغرب الأقصى والأمويون فى الأندلس ·

وأنشأ ابراهيم فى افريقية ملكا واسعا ،وشيد فى مدينة «القيروان» التى اتخذها عاصمة له ، عرشا توارثه أبناؤه واحفاده من بعده ، من سنة ٨٠٠ الى ٩١٠ للميلاد · (١٨٣ الى ٢٩٨ هجرية) فكان عهد الأغالبة هذا أمجد حقبة فى تاريخ القطر التونسى ، مقر حكمهم ومحور نشاطهم · فرأس الأسرة الأمير ابراهيم بن الأغلب ، رسم الخطوط الكبرى لسياسة اصلاح وتعمير وانشاء ، نفذ بعضها فى حياته ، وترك لخلفائه من بعده مهمة انجاز البعض الآخر ، فأنجزوه على أحسن وجه · وفى بضع عشرات من السنين ، أحيطت السواحل التونسية بشبكة من القلاع والحصون ، واخترقت أرض تونس الطرق والقنوات ، وشيدت فى

العاصمة وضواحيها الدور الفخمة ، والقصـــور المنيفة ، وغرست فى جميع الانحاء بساتين الفاكهة من كل نوع ، جىء بها من مصر والشـام ولبنـــان ، وانطلقت القوافل شرقا وغربا ، تحمل منتجات افريقية ، وتجيء بغيرها . وغمرت الدولة الفتية موجة من النشاط والرخاء لم تعرفها من قبل .

الى تلك الدولة الناهضة السـعيدة الموفقة ، أوفد الامبراطور شرلمان رسله ، لمقابلة الجالس على عرش القيروان ، ووضع الهـدايا الثمينة بين يديه ، والافضاء اليه برجاء لا يصعب عليه تحقيقه .

جاء وفد شرلمان الى القيروان ليطلب من ابراهيـم بن الاغلب السماح للافرنج بأن يفتحوا قبر الاسقف « سـبريانوس » ويضعوا رفاته فى صندوق ، ويعـودوا به الى فرنسـا حيث يرغب الامبراطور شرلمان فى دفنه داخل كنيسة مع رفات آبائه وأجداده !

أما سبريانوس ، فهو من الأبرار والأخيار . ولد بمدينة قرطاجنة بافريقية سنة ٢١٠ ميلادية . وقضى حيـاته منصرفا الى أعمال البـر والاحسان . وتولى أسقفية قرطاجة . ولما مات شهيدا بعد أن عذبه الرومان حتى ازهقوا روحه ، دفنه المسـيحيون فى مقر أسـقفيته بقرطاجنة ، ومجدوا ــ منذ ذلك الوقت ــ ذكراه ، وعدوه من القديسين . وهم يحتفلون بعيده فى السادس عشر من شهر سبتمبر .

وكانت لهذا القديس مكانة خاصة فى نفوس رعايا شرلمان من أبناء فرنسا ، فالحوا على مليكهم ، بعد مرور خمسمائة عام على وفاة القديس، بأن يسعى لنقل رفاته الى فرنسا ، فأوفد رسله الى صـديقه صاحب افريقية ، ليفضوا اليه بأمنية العاهل الشيخ .

ونزل الرسل الافرنج ضـيوفا على الأمير ابراهيم فى قصره بجوار القيروان وهو القصر الذى سمى فيما بعد بقسر «العباسية» وبعد انقضاء ثلاثة أيام ، أقيمت لوفد شرلمان مأدبة فاخره ، وأعلن الأغلبى أنه ينزل على رغبة صديقه شرلمان ، ويسمح لرجاله بأن ينقبوا عن ضريح القديس المسيحى وينقلوا رفاته الى بلادهم .

كان بين أعضاء الوفد الافرنجى رجل يدعى « البارون كلود » وهو من أشراف القصر فى بلاط الامبراطور شرلمان ، أقام مدة من الزمن فى بلاد الأندلس ، وتعلم اللغة العربية ، وعلمها لابنـائه . فالحقه الامبراطور بالوفد الذاهب الى افريقية ليـكون مترجما بين الافرنج والعرب فى



صورة قديمة لمدينة تونس

القيروان . والحت « كلوتيلد » ابنة « كلود » على أبيها فى أن يأخذها معه فى رحلته الطويلة الشاقة ، فتردد أولا ، ولكنه اضطر الى الاذعان أمام الحاح الفتاة . وهكذا وجدت « كلوتيلد » نفسها فى القيروان ، ومعها اثنتان من وصيفات القصر ، بين عشرين رجلا من بنى قومها ، فى بلد مسلم ، وفى بلاط ملك عربى !

وكان ابراهيـــــم بن الاغلب من ناحيته قد اتخذ الحيطة لتأمين التخاطب بين رسل شرلمان ، وأبناء البلاد من رعاياه . فعهد الى واحد من اخصائه بأن يتولى الترجمة بين الفريقين .

ذلك الرجل هو « فياض الشــهبى » النصرانى ، وهو غســـانى

جاء أبوه من الشام وكان يحترف الطب ، فاستقر به المقام فى القيروان، حيث مارس مهنته ، وعلمها لابنه من بعده ، فنشأ فياض فى عاصمة افريقية طبيبا مثل أبيه ، محبوبا من الناس ، مشمولا بعطف الحكام ، وقد قربه ابراهيم بن الاغلب منذ اليوم الذى آلت اليه فيه الولاية من هرون الرشيد ، فأصبح فياض طبيب القصر والأسرة المالكة ٠

كان الطبيب الشاب فى الخامسة والعشرين من العمر لما وفد على القيروان رسل شرلمان قادمين من فرنسا . وشاءت الأقدار أن يلتقى ذلك النصرانى الشامى بالنصرانى الغربى « كلود » والد الفتاة « كلوتيلد » ، وأن يشترك الثلاثة ، الطبيب العربى ، والبارون الافرنجى، وابنته الحسناء فى مهمة واحدة ، وهى تأمين التفاهم بين الفريقين ، الضيوف الذين لا يتكلمون غير لغتهم الفرنسية ، واهل البلاد الذين لايجيدون غير لغتهم العربية ٠

وقام الثلاثة بالمهمة خير قيام ...

ومرت أسابيع ، زار خلالها رسل شرلمان انحاء الامارة الأغلبية ، ووقفوا مشدوهين اعجابا أمام المنشآت العمرانية التى تنبت من الأرض وتنمو كما ينبت العشب وينمو الشجر ، وراح بعضهم يسأل ويستفهم ويستقصى ، لكى يحمل الى سيده خبر تلك الأعمال العمرانية على أمل أن يحذو شرلمان فى وطنه حذو صديقه الاغلبى فى افريقية ، ويفعل هناك ما يفعله ابراهيم هنا ٠

قبل أن يبحر الرسل عائدين الى بلادهم ، حاملين الى الامبراطور الامانة التى انتشلوها من جوف الارض فى قرطاجنة دعاهم الامير الاغلبى الى مأدبة وداع أقيمت فى القصر ، وحضرها عظماء المملكة والقواد والأعيان ، وأمر ابراهيم بأن تنحر الذبائح فى ذلك اليوم وتوزع لحومها على سكان القيروان جميعا ، في الحدائق والبساتين ، كيلا يحرم أحد من الرعايا ، من الاشتراك فى توديع الضيوف الأغراب قبيل رحيلهم معززين مكرمين !

وفى وسط المأدبة ، فوجىء المدعوون باعلان خبر ما كان أحد ينتظره : ذلك هو خبر رحيل الطبيب فياض الشهبى مع رسلَ شرلمان الى فرنسا ، حاملا معه دواء للامبراطور ، هدية من الامير ابراهيم ابن الأغلب ٠

فقد علم الأمير من رجال الوفد الافرنجي ، أن مليكهم الشيخ يشكو من ارق يحرمه من النوم ، ويسبب له صداعا لا يطاق ، ويوهن ما تبقى من قواه ، وهو فى سن الشيخوخة . فطلب الأمير من طبيبه الشـامى علاجا لما يشكو منه صديقه ، واعد الطبيب العلاج فى شكل مزيج من عصارة الأعشاب والفواكه ، ووضع ابراهيم بن الاغلب كمية وافرة من ذلك الدواء فى قارورة من الزجاج بكسوها غطاء من الذهب الخالص لارسالها هدية الى شرلمان .

وطلب الطبيب بالحاح أن يحمل الهدية بنفسـه الى العاهل الافرنجى . فأجابه الأمير الى طلبه ، وسمح له بأن يرافق الرسل فى عودتهم الى وطنهم .

وارسل ابراهيم أيضا الى صديقه شرلمان جوادا عربيا أصيلا ، وسيفا قبضته مرصعة بالجواهر ، وسرجا من صنع القيروان !

شفى الامبراطور شرلمان من العلة التى كان يشكو منها ، واستعاد راحته ونشاطه وهدوء أعصابه ، وصار ينام نوما عميقا لا تقلقه أحلام كئيبة ولا يقطعه عليه ارق مزعج : كل ذلك بفضل العلاج الذى حمله اليه فياض الشهبى ، طبيب الأغالبة الغسانى .

وفى سنة ٨١٢ للميلاد ـ الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة ـ عاد فياض الى القيروان ، فاذا به يجد مولاه وصـديقه ابراهيم بن الأغلب على فراش الموت !

حاول أن ينقذه فلم يفلح . وأبدى المريض ارتياحه لما قصه عليه طبيبه من نجاحه فى مهمته لدى الامبراطور الافرنجى . وتضاعف سروره لما أخبره فيـاض بأنه لم يرجع الى القيروان وحده ، بل بصحبة زوجة افرنجية رضيت بأن تربط حياتها بحياته ، وترحل معه من وطنها الى وطنه .

ولم يجد ابراهيم صـعوبة فى معرفة اسم تلك الزوجة ، فقد انطلق الاسم من بين شفتيه همسا :

ـ كلوتيلد ؟

وأجاب فياض الشهبى :

ـ نعم ، كلوتيلد يا مولاى .. فقد مات أبوها ، واصـبحت

وحيدة فى هذا العالم .. وهى نصرانية مثلى ، وتجيد اللغة العربية مثل أبيها ...

وقال ابراهيم :

ـ وستصبح مثلك أنت عضوا صالحا فى جسم هذه الامة التى تتبناها ...

ـ نعم ، لأننى سأعلمها الطب ، لكى تنصرف الى معالجة النساء المريضات بينما انصرف أنا الى معالجة المرضى من الرجال !

وسكت ابراهيم لحظة ، ثم أردف قائلا :

ـ لقد أخذ منا شرلمان قديسا ميتا ، وأعاد الينا حورية حية !

وصدق ابراهيم بن الاغلب : فان زوجة الطبيب فياض الشهبى كانت على جانب عظيم من الجمال والذكاء ، وقد استقرت فى القيروان تلك الحورية المولودة فى فرنسا ، بينما استقر فى فرنسا القديس سبريانوس المولود فى افريقية !

وقد ذكر بعض المؤرخين الافرنج خبر علاج الامبراطور شرلمان من الأرق والصداع ، على يد طبيب يدعى « فايول » ٠

ولم يكن « فايول » طبيبا فرنسيا ، بل كان عربيا ، وهو « فياض الشهبى ! »

وقد مات شرلمان فى سنة ٨١٤ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٨ للهجرة وسبقه الى العالم الآخر صديقه وحليفه ابراهيم بن الأغلب ، فى سنة ٨١٢ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة ٠

ضريح القيروان

تلعب الأقدار بمصائر الأفراد
كما تلعب بمصائر الجماعات ،
وكثيرا ما يساعد الانسان
الأقدار في تصرفاتها بدون
قصد منه ! . . . . .

أصغى الأمير « أبو ابراهيـم أحمـد الأغلبى » باهتمام ممزوج بالعطف الى ما قصـه عليه الطبيب « سـادو » الذى جـاء الى مدينة « القيروان » من بلاد الافرنج ، ورحب الأمير العـربى بالغريب أيما ترحيب . وقال بعد أن فرغ من حديثه :

ــ ان أبوابنا مفتوحة دائما لرجال العلم أيها الطبيب الفاضل ، ولهذا فاننا نكرم وفادتك ، ونسهل لك مهمتك ، وننزلك ضيفا علينا ، مدة اقامتك بين ظهرانينا فى القيروان عاصمتنا ، وفى الأرض الافريقية الخاضعة لحكمنا .. فالطب علم من العلوم التى وضـعناها تحت حمايتنا ، وقد أخذنا بيد المنصرفين الى هذا العلم لأن العناية بصحة الأفراد واجب على الحكام .. وقد أرسلت فى طلب امرأة ذاع صيتها فى البلاد الافريقية ، واشتهرت بمعرفة خصائص الاعشاب ، ومداواة الناس بالعقاقير المستخلصة منها ، وهى تدعى « نفيسـة التلمسانية » التى ستكون لك خير دليل فى بحثك ودرسك وتنقيبك ..

تزاحمت آيات الشكر على لسان الطبيب الأفرنجى ، وقال للأمير الكريم الذى رحب به ذلك الترحيب الحار :

ــ لقد طفت البلدان والأمصار أيها المولى ، جامعا ما حصـلت عليه من معلومات وأدوية لعلاج مختلف الأمراض ، وساكون سـعيدا بأن نتبادل ــ الطبيبة الافريقية وأنا ــ معارفنـا وتجاربنا لمصلحة المرضى والمعذبين ..

وعلى حافة « صهريج القيروان » جلست فى اليوم التالى « نفيسة التلمسانية » ومعها الطبيب « سادو » وراح الاثنان يتجاذبان الحديث فى العلم الذى انصرفا الى دراسته ...

فما هو « صهريج القيروان ؟ » ومن هى « نفيسة ؟ » ومن هو « سادو » ؟

كانت الأحوال فى « افريقية » ــ وهى اليوم « تونس » مضطربة

مفعمة بالقلق وأسباب الفتن ، فى أواخر القرن الهجرى الثانى ، فأدرك الخليفة العباسى هرون الرشيد أن الحكمة تقضى باختيار حاكم يمتاز بعدله وصرامته ومرونته ، يعيد الى النفوس الطمأنينة ، والى البلاد الاستقرار ، والا ضاعت افريقية من العباسيين ، كما ضاعت منهم الأندلس وبلاد المغرب الأقصى ، حيث تولى الامر الأمويون والأدارسة ..

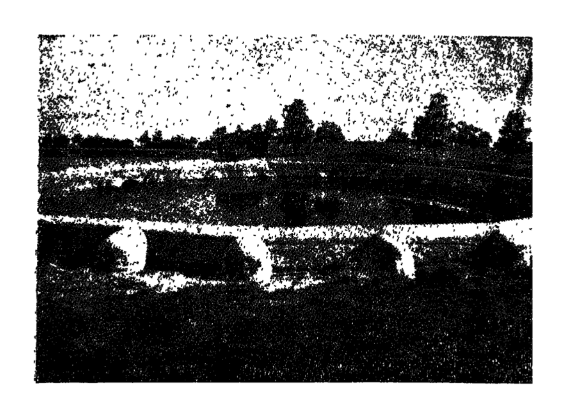
ووقع اختيار هرون الرشيد على بطل من أبطال الحروب ، كان أبوه « ابن سليم الأغلب » نصيرا للعباسيين وقت كفاحهم فى سبيل الخلافة ، ذلك البطل هو « ابراهيم بن الأغلب » الذى هاجر من الجزائر ـ حيث كان يقيم ـ وقصد الى تونس وتولى الحكم فيها بيد من حديد .. واتخذ مدينة « القيروان » عاصمة له ، وذلك فى سنة ١٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد .

وكان ابراهيم بن الأغلب بعيد النظر ثاقبه ، عالى الهمة كريما سخيا طموحا ، فأقدم على سلسلة من الأعمال العمرانية ، خلال السنوات الاثنتى عشرة التى قضاها فى الحكم ، وأصبحت « القيروان » فى عهده مدينة زاهرة مزدحمة بالسكان ، تشع منها أنوار المعارف ، ويقصد اليها العلماء والتجار من كل فج وصوب ..

وتوارث « الأغالبة » الحكم فأنشأوا أسرة مالكة ، بلغ عدد أمرائها أحد عشر أميرا ، من سنة ٨٠٠ الى سنة ٩١٠ للميلاد (١٨٣ الى ٢٩٨ هجرية)

وخيم الأمن على افريقية فى عهد هؤلاء الأمراء ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وانتظمت وسائل النقل ، وانشئت المدن ، واستخرجت المعادن ، وشيدت المساجد ودور التعليم ، وأحيطت الامارة بحلقات متواصلة من الأسوار والقلاع والحصون ، فضلا عن القصور التى ازدانت بها القيروان وغيرها من المدن ..

وفى سنة ٨٥٦ ميلادية الموافقة لسنة ٢٤٢ للهجرة ـ تولى الحكم أبو ابراهيم أحمد الأغلبى ، حفيد ابراهيم مؤسس الأسرة ، فسار على منهج جده ، وعنى عناية خاصة بتشييد القصور واقامة الجسور ، وحفر الأقنية والاحواض ، لاختزان الماء ، وتوسيع ما حفره جده منها .. وهذه السياسة « المائية» مفخرة من مفاخر



صهريج الامراء الاغالبة
بالقيروان في البلاد التونسية

الأغالبة ، وقد ظلت عدة أجيال ، مصـــدر خير ونعمة للقطر التونسى بأسره ..

ولا تزال بقايا تلك الأقنية والأحواض ــ أو آثارها ــ باقية الى أيامنا هذه ، ومنها الحوض الكبير المستدير ، المعروف باسم « صهريج القيروان » والذى يرجع الفضل فى بنـــائه الى أبى ابراهيم أحمد الأغلبى . وكان ذلك الحوض يحفظ المـــاء للشرب والرى على السواء ، وحوله الحدائق والحقول والبساتين ، حيث يخرج ســــكان القيروان للنزهة والترويح عن النفس ..

أما « نفيسة التلمسانية » فقصتها أغرب من الخيال : فقد كانت جدتها لأمها افرنجية من مرسيليا ؛ دفعتها الأحداث الى حياة لم تكن البيئة التى عاشت فيها تهيئها لها . فرافقت الجنود الافرنج فى عهد « الامبراطور شرلمان » الى بلاد « الأندلس » ، وبقيت فيها لأنها علقت بحب شــــاب عربى ، تزوجته وهجرت من أجله قومها وبلادها وغيرت

دينها . ولكن الرجل الذى ضـحت من أجله بكل ذلك ، لم يكن أهلا للتضحية ، فقد اقترف جريمة قتل ، وفر من وجه العدالة ، وترك زوجته وحيدة فى بلاد ليست بلادها ، وقوم ليسوا قومها . وانقطعت اخباره عنها ، فهامت على وجهها ، حاملة بين ذراعيها طفلة صـغيرة ، هى ثمرة ذلك الغـــرام ، والزواج . وانطلقت تضرب فى طول الأرض وعرضها ، فاجتازت بلاد المغرب ، ووصلت الى الجزائر ، حيث قيض لها الله شخصا انقذها مما كانت فيه ، فاســتخدمها مربية لأبنائه فى مدينة « تلمسان » وعنى بطفلتها ، حتى اذا ما شـــبت وترعرعت ، زوجها لواحد من ابنائه .

ولكن الاقدار ظلت تلاحق المرأة وابنتها ، فقد قتل أفراد الاسرة التلمسانية فى الحروب والثورات ، ولم يبق منهم على قيـد الحيـاة غير ابنة المرأة الافرنجية وزوجها العربى « جابر » فهـاجر الاثنـان الى الشرق ، قاصـــدين الى بلد ينســـيان فيه ما حل بذويهم من ويلات ، واستقر بهم المقـام فى القيروان ، حيث كان الامن مستتبا ، بفضـل الاغالبة الميامين العادلين .

وعرف الرجل كيف يكتســب احترام الناس وعطف الحـــكام ، فانصرف الى ممارسة الطب والمداواة بالاعشاب ، وقد ورث ذلك الفن عن أمه الافرنجية التى أخذته عن زوجها الأول بالأندلس .

ومات « جابر التلمسانى » فى عهد أبى ابراهيم الاغلب بالقيروان، ولحقت به زوجته ، تاركين فتاة وحيدة هى « نفيسة التلمســانية » التى نشأت تمارس الطب والمداواة بالاعشاب أيضا مثل أبيها وأمهـا وجدتها ..

وذاع صيت « نفيسة » فى البلاد التونسية ، وشملها أبو ابراهيم الأغلب بعطفه ورعايته ، وآثرت أن تعيش وحيدة بلا زواج ولا ولد ، فى كنف الامــراء الاغالبــة . فاعتــكفت فى كوخ قريب من باب تونس بالقيروان ، باحثة دارسة منقبة ، تعالج المرضى بعقاقيرها المستخلصة من الاعشاب وثمار الاشجار ، ينثر عليهـا الأغالبة خيراتهم ، وتنثر هى الرحمة من حولها ..؟

وكانت « نفيسة » يوم وفد الطبيب الافرنجى « سادو » على القيروان فى منتصف العقد الثالث من العمر !

وأما « سادو » فان قصته لاتقل غرابة عن قصة زميلته الطبيبة التلمسانية !

فقد وفد جده لابيه من الاندلس الى بلاد الافرنج ، فى عهد الامبراطور شرلمان أيضا ، وفى ظروف غامضة .. وهناك اتخذ الرجل لنفسه وطنا غير وطنه ، وقوما غير قومه ، ودينا غير دينه .. وكان طبيبا بارعا فى شفاء الامراض بخلاصة الاعشاب ..وقد تزوج امرأة افرنجية قتل زوجها فى حروب الاندلس ، وانجب منها ابنا كبر ومارس الطب مثل أبيه ، وانجب الابن طبيبا ثالثا ، هو « بولس سادو » الذى عول ـ بعد انقراض اسرته فى بلاد الافرنج ـ على الطواف فى العالم ، دارسا باحثا عن عقاقير جديدة ، وأبواب يجهلها من فن الطب ومواساة المرضى ..

كان اسم الجد الخارج من الاندلس الى بلاد الافرنج« وهب السعدى » وهو من اسرة تنتمى الى نجد ، وفدت على الغرب مع الفاتحين العرب • وعرف ابنه وحفيده فيما بعد باسم « سادو » عند الافرنج الذين امتزجت بهم الاسرة العربية ..

ولما خرج « بولس سادو » الطبيب العربى المتفرنج من مدينة « ليون » مقر أسرته ، وانطلق نحو الاندلس والساحل الافريقى ، معتزما قضاء حياته فى سفر دائم وتنقل مستمر ، وجد من الحكام الافرنج والعرب على السواء ، عطفا وتقديرا ومعونة ، بالنظر الى ماكان القوم عليه فى ذلك العهد يحيطون به رجال العلم ، وعلى الخصوص الأطباء منهم ، من اكرام واجلال ..

وفى مدينة القيروان العربية الاغلبية ، شاءت الظروف أن يلتقى الطبيب الافرنجى بالطبيبة العربية ، وأن يجمع بينهما الامير « أبو ابراهيم الاغلب » صاحب تونس وحاكم افريقية ، ليواصلا معا أبحاثهما ودروسهما فى سبيل الانسانية المعذبة !

وما كان أبو ابراهيم الاغلبى يعلم انه يجمع بين طرفى خيط واحد وانه يساعد الاقدار فى لعبها بمصائر الناس !

مرة بعد مرة ، على حافة « صهريج القيروان » جلست اذن نفيسة التلمسانية ، وبولس سادو يتبادلان المعلومات ويتناقشان ويتجادلان فى خصائص الاعشاب ، وما تحويه من بلاسم شافية للعلل والامراض ..

وكانت حافة الصـــهريج ملتقى القـــيروانيين فى نزهاتهم ، فانهم كانوا يخرجون من دورهم ومن مراكز أعمالهم فى كل مساء ، ويمرحون فى الحدائق والبســـاتين والرياض ، ينعمون بالنسيم المنعش ومنظر الخضرة وخرير المياه ، بين الاشجار والقنوات والنوافير ، يقطفون من الاثمار أشهاها ، ومن الازهار أجملها ، ويعقدون المجالس حلقـــات حلقات ، هنا يتناقشون ويتجادلون ، وهناك يفنون ويطربون ، وهنالك يستلقون على الحشائش مرتاحين مطمئنين .

كانت الحياة فى ظل حكم الاغالبة هنيئة هادئة ، مفعمة بالعمـل الصالح ، والاطمئنان الى الغد . وكانت افريقية دولة عربية زاهرة ، تجلب الخير لنفسها وتوزعه حولها ، وكان أبو ابراهيم الاغلب ملـكا سعيدا بسعادة شعبه ، وكان شعبه سعيدا بسعادة ملكه !

وظل الطبيب الافرنجى اياما وأسابيع يطوف مع زميلته العربية، يزيدها علما وتزيده معرفة ، وفى مساء كل يوم ، يجتمع الاثنـــان على حافة الصهريج ، لاستعادة اختبارات يومهما ، وابتكار لون جديد من ألوان العلاج والمداواة ..

وفى ذات يوم ، بعد عنـــاء مضن وطواف طويل ، جلس الاثنـــان كعادتها على الحافة المعهودة ، وجعلا يتناولان الطعام ، مما أعدته نفيســة من زاد ..

وجنح بهما الحديث عن ســـيره المعتـــاد ، عن الطب والاعشـــاب والعلاج ، الى أسرتها وأسرته ، الى ماضيها وماضيه .

وداخلهما القلق والاضطراب فى خلال الحديث ، وكلما توغلا فيه زاد الاضطراب وزاد القلق .

سألته عن اسمه ، فروى لها ما يعرفه عنه . وسألها عن اسمها فروت له ما تعرفه عنه ..

تحدث عن الأندلس ، وعن خروج جده منها ، وتحدثت عن بلاد الافرنج وعن خروج جدتها من مرسيليا ...

وقال لها ان اسم جده « وهب السعدى » وأن هـــذا الاسم قد تطور وتحول على ألسنة الافرنج وأصبح « سادو » . وقالت له انامها ذكرت لها وهى صغيرة ذلك الاسم أكثر من مرة !

وتكشفت لهما الحقيقةشيئا .فشيئا، وتجلت أمام أعينهما تفاصيل المأساة ومراحلها مرحلة بعد اخرى !

لم يكن « وهب السعدى » غير زوج الافرنجية التى خرجت من مرسيليا واستوطنت الاندلس . ولم يكن « بولس سادو » غير حفيد ذلك الطبيب الاندلسى الذى فر من وجه العدالة بعد اقتراف جريمته، تاركا زوجته وطفلتها فريسة للاقدار ...

نعم ، أن « بولس » حفيد ذلك العربى الذى تخلى عن وطنه وعن قومه وعن دينه ، ونفيسة حفيدة تلك الافرنجية التى تخلت عن وطنها وعن قومها وعن دينها !

وها هى الظروف القاسية ، والأقدار اللاعبة بالمصائر ، تجمع فى مكان واحد ، فى أرض أفريقية ، على حافة صهريج بالقيروان ، بين حفيد الطبيب العربى المسلم ، وحفيدة الطبيبة الافرنجيـة المسيحية ، وقد أصبح الحفيد افرنجيا مسيحيا ، وأصبحت الحفيدة عربية مسلمة !

لم يعد الطبيب بولس سادو فى تلك الليلة الى قصر الأمير الأغلبى الذى استضافه . ولم تعد نفيسة التلمسانية فى تلك الليلة الى كوخها فى ظاهر القيروان ..

وفى صباح اليوم التالى ، فى صيف تلك السنة ، سنة ٢٤٩هجرية، الموافقة لسنة ٨٦٣ للميلاد ، وجدت جثتـان طافيتان على سطح الماء الصافى ، فى صهريج القيروان !..

فهل أقدم الطبيب والطبيبة على الانتحار عمدا بالقاء نفسيهما فى اليم ؟ وهل استبد بهما وخز الضـمير ، واعتبر كل منهما أن أسرته ملطخة بعار الخيانة ، خيانة الوطن ، وخيانة العشيرة ، وخيانة الدين؟ وأن العقاب الذى يرضاه الضمير ، ويرتاح اليـه ، هو الموت المتعمد . فوضع الاثنان حدا لحياتهما ، وقطعا بأيديهما ذلك الخيط الذى ربط أبو ابراهيم الأغلب طرفيه مدفوعا بعطفه على العلم والعلماء ؟!

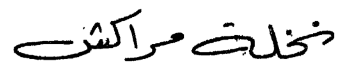
أم أن سنة من النوم قد أخذت الطبيب والطبيبة ، بعد أن امتد بهما المقام ، وطال بينهما الحديث ، ولعبت بأعصابهما الشجون ، فاستلقيا على حافة الصهريج ، وسقطا فى الماء عن غير تعمد ، وغرقا فى سـكون الليل ، بينما كانت القيروان كلها غارقة فى نومها ؟

امر ابو ابراهيم الاغلب ان يدفن الطبيب والطبيبة فى مكان واحد.

ولكنه أوفد الرسل الى بلاد الغـرب ، وسـاعدته الظروف على كشف الستار عن حقيقة « بولس سادو » أو « بولس السـعدى » قبل ان توافيه المنية ..

فقد مات أبو ابراهيم فى السـنة نفسـها التى غـرق فيها بولس ونفيسة ، واحتفظ فى مكتبته فى « القصر القديم » بالمخطوطات التى تركها الاثنان ، ودونا فيها نتائج دروسهما وأبحاثهما الطبية .

وقد نقل جزء كبير من مكتبة الأغالبة الى « فاس » بالمغرب الاقصى ثم الى الأندلس فى القرون التالية ، وترك بعض مخطوطاتها فى أسبانيا ، بعد خروج العرب من الفردوس المفقود . وقد يعثر الباحثون على شيء منها ، لو امتدت ايديهم الى مخابىء قصر « اسكوريال » على مقربة من مدريد عاصمة اسـبانيا اليوم حيث تكدست خـزائن الكتب العـربية الاندلسية ، فى اقبية تحت الأرض ، لا تزال فيها الى أيامنا هذه !



« نخلة » ذهبت من الشام
الى المغـــــرب ، ودفنت بين
«النخيل» فى مدينة مراكش ،
بعد ان جلبت الســعد للبلاد
واهلها .

بجوار مسجد الكتيبة بمدينة مراكش ، وفي ظلال المئذنة البديعة التى تعد آية رائعة من آيات الفن المعمارى والهندسى فى الاسلام ، يجثم ضريح خال من مظاهر البذخ والعظمة ، ولكنه يضم رفات بطل ملأ اسمه الدنيا وطبق فى عهده الآفاق : يوسف بن تاشفين .

وخارج أسوار المدينة ، بين أشجار النخيل المتراصة كانها كتائب المجاهدين تتأهب لزحف رهيب وفتح قريب ، قبر آخر ، ضاعت معالمه، ويصعب على الباحث العثور عليه : ذلك القبر يضم رفات امرأة كان لها فى حروب ابن تاشفين نصيب ، وفى انشاء مدينة مراكش فضل كبير : « نخلة اللمعية الشامية » التى عرفها رفاق الفاتح العظيم من أبطال «المرابطين» باسم «نخلة مراكش» والتى تتغنى الافنان والاغصان بذكرها العطر بلا شك ، كلما داعب النسيم سعف النخيل او عصفت بها الرياح فى سهل « المدينة الحمراء » .

مشى أبو بكر بن عمر اللمتونى ، أمير الملثمين ، وعميد الاشياخ المرابطين ، من الجنوب حيث كانت قبائل البربر تضرب مضاربها ، الى الشمال حيث المدن والقرى والمزارع والحقول . وحالفه النصر من مرحلة الى مرحلة فبسط سلطانه على البلدان الممتدة فى محاذاة جبال الأطلس وبين شعابها ووديانها ، ولكن ظروفا قاهرة أرغمت القائد الموفق على العودة أدراجه من حيث أتى ، فألقى بمقاليد الامور الى ابن عمه يوسف ابن تاشفين ونادى به قائدا للبربر وعميدا لاشياخ المرابطين ولقبه بأمير المسلمين ، فكان يوسف عند حسن الظن به ، وجديرا بتأدية الرسالة التى وضعها ابن عمه أبو بكر امانة فى عنقه .

قرر يوسف اذن مواصلة الزحف شمالا ، وفى آن واحد انشاء سلسلة من القلاع والحصون والمدن ، وترك حاميات فيها ، واقامة حكم المرابطين على أسس قوية ودعائم ثابتة ، واختيار مكان صالح لبناء عاصمة للدولة الجديدة التى لم يشك القائد لحظة واحدة فى انها ستبسط سلطانها على المغرب كله .

وكان يوسف بن تاشفين يعتمد فى أعماله الحربية على رهط من

رفاقه في الجهاد ، وثق بهم ووثقوا به ، وجعل منهم مستشاريه في كل كبيرة وصغيرة ، بل جعل منهم ما سمى فيما بعد ، بلغة الجيوش ، هيئة « أركان الحرب » التي يعتمد عليها كل قائد .

أما الشخص الذى كان يوسف يستشيره أكثر من غيره ، ويعمل برأيه أكثر من غيره ، فامرأة رافقت المرابطين في غزواتهم الموفقة منذ اللحظة الاولى، ونظروا اليها جميعا نظرة زعيمهم، فاعتقدوا فيها القدرة على استطلاع الغيب والقراءة في صفحة القضاء ومعرفة ما يخبىء الغد من مراقبة الطيور في روحاتها وهجراتها ...

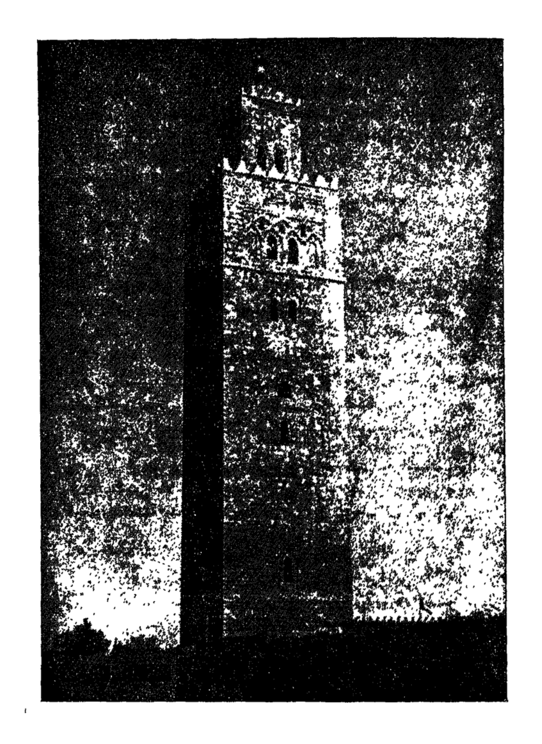
هذا ما كان يعتقده يوسف بن تاشفين ورفاقه ، وزادوا عليه اعتقادهم في قرارة أنفسهم أن « نخلة المدعية السامية » تجلب لهم الخير وتضمن لقائدهم النصر ما دامت ملازمة لهم في أسفارهم وحروبهم وفتوحاتهم . فهى في نظر يوسف وفي الواقع ، عرافة لا تخطىء ، وتميمة لا يفارقها السعد .

ونخلة بنت رجل شامي يدعى « فهد اللمعى » جاء الى المغرب مع الحجاج المرابطين ، واستشهد في حروبهم ، وماتت زوجته تاركة وحيدتها « نخلة » وديعة بين يدى أبي بكر بن عمر اللمتوني ، فأنقذها يوسف بن تاشفين ذات مرة من مخالب ذئب هاجم المضارب في خلال رحلة من رحلات القبائل البربرية عند تخوم شنقيط . واقسمت الفتاة أن تعيش في كنف منقذها وتقف نفسها على خدمته ، وأن ترافقه في حروبه وتشاركه القتال وتخوض غمار المعارك على ظهور الابل والمهارى ، ككل محارب من أبناء القبائل ...

هذا ما عرفه عنها أولئك الرجال الاشداء الذين قادهم أبو بكر ابن عمر أولا ، ثم يوسف بن تاشفين من بعده ، الى فتح الأقطار والأمصار ، واخضاع الحضر والبدو من سكان المغرب ..

عرفوا اسمها . وعرفوا وايقنوا انها عرافة تنبئهم بما يخبئه لهم الغد . وجلابة للسعد لكل من يلمس ثوبها أو يرافقها في سفر أو في حرب ...

وأحبتها « زينب » زوجة يوسف بن تاشفين كما أحبها زوجها ، بل أرادت الزوجة أن يتخذ زوجها القائد المنتصر تلك الشامية الفتية الحسناء خليلة له وزوجة تشاركها قلبه . ولكن نخلة نفسها رفضت أن



صومعة ((الكتبية)) بالمسجد الكبير

بناة يوسف بن تاشفين بمراكش

يسبغ عليها منقذها وسيدها ذلك الذى كانت تعده شرفا لها . فقد قالت لزينب :

ــ أيتها السيدة المصونة ، ان بقائى عذراء شرط لازم للاحتفاظ بقدرتى على استطلاع الغيب من ناحية ، كما يعتقد الناس ، وعلى جلب السعد لمن يلازمنى ، كما يعتقد زوجك على الخصوص . فنخلة اللمعية لن تتخذ لنفسها بعلا من الرجال . وفى اليوم الذى يحدث فيه هذا ، تفقد نخـلة تلك المزايا التى تتمتع بها ، وتلك الصـفات التى تجعلكم جميعا تحبونها وتحترمونها وتحافظون على حياتها ..

ويوم ألقى ابو بكر بن عمر بمقاليد الجيش الزاحف الى ابن عمه يوسف ، قالت نخلة للقائد الجديد :

ــ ان غدك يا يوسف لمفعم بالعظائم والكبائر !.. نحن الآن فى مكان كان الأقدمون قد اتخذوه مقـرا لآلهتهم ، وهيكلا لأصـنامهم ، ومسرحا لأعبادهم وأفراحهم ، واننا نرى حولنا آثار تلك العصور الخوالى ، التى كانت فيها شعوب انقرضت الآن تحكم هنا وتسود . وفى هذا المكان ، أرى أن تنشىء أول مدينة تحمل طابعك وطابع القوم الذين تتولى قيادتهم الى النصر .

وسأل يوسف :

ــ أرجو يا نخلة أن تتصفحى ما تنصحنى به الكواكب والنجوم ، وان تنبئينى بالاسم الذى يجمل بى أن أطلقه على المدينة الجديدة ، وهل أجعلها عاصمة ملكى أم مرحلة من مراحل الزحف الى الشمال .. ؟

وفى اليوم التالى ، جاءه الرد :

ــ يوسف ، أطلق على مدينتك اسم « تمراكش » وشيد بيوتهـا واسوارها من الحجارة الحمراء ، وأجعـل فى وسطها مسجدا جامعـا تشرف مئذنته على السهول المحيطة بالمدينة العتيدة التى يجدر بك ان تعدها من الآن عاصمة دولتك .

ــ وهل اترك السهول جرداء كما هى الآن ؟

ــ كلا .. بل سوف نجىء اليها بآلاف من فسائل النخيل ، من الغابات الجنوبية التى نشأت وترعرعت فيها عشائر البربر .

ونفذ يوسف نصيحة العرافة . ولكنـه اشـترط عليها ان تظل

ملازمة للعمال والصناع والبنائين الذين عهد اليهم الفاتح فى انشاء عاصمته الجديدة . فقد قال لها :

ـ يجب ان يظل السعد مخيما على المكان حتى تصبح المدينة أمرا واقعا . فعليك يا نخلة أن لا تنتقلى من هنا ، وأن تضمنى ببقائك فى تمراكش نجاح الاعمال وسيرها بسرعة ...

وهذا ما حدث !

فقد أشرفت نخلة على وضع الرسوم والتصميمات وتخطيط الطرقات والازقة ، وحفر القنوات وجرى المياه من الينابيع والجداول الى داخل المدينة ...

وأشرفت بصورة خاصة على نقل فسائل النخيل من أقصى الجنوب ، وغرسها حول المدينة لكى تنمو فى الوقت الذى تشيد فيه المساكن والدور الرسمية والمساجد وثكنات الجيش ...

كل ذلك تم فى سنة واحدة : ٤٥٥ هجرية ، الموافقة لسنة ١٠٦٢ للميلاد .

نبتت المدينة فى الصحراء بقدرة قادر ، وأحاطها يوسف بن تاشفين بسور من الحجر الاحمر ، وفرش أرضها بالرمال الحمراء ، وسماها بلغة البربر « تمراكش » وهو الاسم الذى حرفته الألسنة على كر الأيام فأصبح « مراكش » وظل اسم القطر كله الذى كانت المدينة المرابطية عاصمة له ، المغرب الاقصى ...

المدينة التى تمتد حولها السهول الخضراء بنخيلها الذى لا حصر له ، والذى يرجع الفضل فى غرس فسائله الاولى الى صديقة الفاتح ورفيقته فى فتوحاته ، نخلة اللمعية الشامية ...

المدينة التى قدر لها أن يبلغ عدد سكانها فى أوج عظمتها أكثر من نصف مليون ساكن . والتى شبهها الاجانب الذين زاروها بياقوتةضخمة حمراء ، وسط حقل من الزمرد الاخضر ، لشدة حمرتها عندما تنصب عليها أشعة الشمس ، ولبهاء خضرتها المتماوجة عندما تلعب الرياح بسعف النخيل فى الغابات المترامية الاطراف ...

ووراء كل عمل أقدم عليه يوسف بن تاشفين ، فى ميدان الحرب أو فى مضمار الانشاء والتعمير، رأىللمرأة التىكان يعتقد فيها القدرتين، قدرة معرفة الغيب وقدرة جلب السعد ...

كانت نخلة اللمعية مع القائد يوم دخل مدينة فاس فاتحا . وكانت معه يوم قفز من المغرب الى الاندلس ، لنجدة المعتمد بن عباد وهـزم الافرنج فى وقعة « الزلاقة » التى ذعر فيها المحاربون الاسبانيون اذ رأوا للمرة الاولى الهجن الخفيفة السريعة تخوض الميادين بجانب الخيـول المطهمة .

وكانت نخلة اللمعية مع القائد المظفر فى جميع المراحل التىاجتازها يوسف بن تاشفين فى اقامة ملكه وانشاء دولة المرابطين التىامتد سلطانها من اسبانيا الى أطراف الصحراء الكبرى ...

وكان يوسف بن تاشفين بجـانب نخلة اللمعيـة الشـامية ، يوم اشتدت عليها وطأة الحمى، فماتت تدعو للمرابطين بدوام العز والنصر..

كان ذلك فى سنة خمسمائة للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٠٦ للميلاد، بمدينة مراكش التى أشرفت المرأة على انشائها .

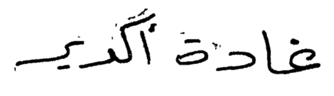
ونفذ يوسف بن تاشفين رغبة العرافة الاخيرة فأمر بأن تدفن فى ظلال النخيل ، على مقربة من الاسوار الحمراء .

وفى السنة نفسها ، لحق يوسف بن تاشفين بالمرأة التى كانيعتقد اعتقادا راسخا ان بقاءه مرتبط ببقائها ، وان موته لابد أن يتبع موتها ..

ودفن أبو يعقوب يوسف بن تاشـفين ، أمير المسـلمين ، وأمير المؤمنين ، وشيخ المرابطين ، فى الضريح الذى أعـده لنفسـه ، بجـوار المسجد الاكبر الذى بناه فى عاصمة ملكه ، وعرف باسم الكتبية .

قرون مضت على وفاة الفاتح العظيم ، وضريحه باق فى مكانه . وأما ضريح العرافة التى أكرمها وكانت له وفية ، فقد طغت عليه الرمال وطوته جذوع النخيل بين أذرعتها العديدة فاختفت معالمه ..

ولكن اشجار النخيل باقية ، تتكاثر يوما بعد يوم ، وتتمتم عند الغروب اسم « النخلة » التى جاءت من المشرق الى المغرب ، من الشام الى تمراكش لتستطلع الغيب وتجلب السعد !



كرهت خطيبهـا الجبـان ،
فآثرت عليه عـدوه الشجاع ،
وانتقلت من بيئة الى بيئة !

لم يذق الحاكم فى ذلك اليوم طعم الراحة ، ولم يغمض له فى الليل جفن : فالاخبار التى حملها اليه الرسل الذين اوفدهم للاستطلاع ، زادت مخاوفه ، وأكدت له صحة الاشاعات التى توالت على الحصن الذى يقيم فيه ، والقائلة بأن قوة من المغاربة فى طريقها اليه ..

كان ذلك المكان من ساحل المغرب الاقصى ، على بحر الظلمات ، مقصد الصيادين لوفرة السمك فى مياهه ، وصلاحية شاطئه لرسو السفن ، وتفريغها ، أو لاحتمائها من الامواج الهائجة ، يوم تهب العواصف وتشتد الرياح .

وكان جميع الصيادين الذين يقصدون ذلك المكان المحظوظ ، أو معظمهم ، من البرتغاليين . فالاسطول البرتغالى كان مسيطرا على البحار تجاه السواحل الافريقية ، وكان له فى بعض أنحاء المغرب ثغور يأوى اليها ، وقلاع تحمى الثغور ، وحاميات تقيم فى القلاع !

طلب الصيادون البرتغاليون من ملكهم أن يضيف الى تلك الحاميات حامية . والى تلك القلاع قلعة ، والى تلك الثغور ثغرا . فأجابهم الى طلبهم ، وانشأ لهم حصنا فى المكان الذى اختاروه ، اطلق عليه اسم « سانتا كروز » أى « الصليب المقدس » وجعل له حامية بقيادة حاكم من قواد جيشه ، ودعا الصيادين الى اقامة أكواخ وبناء منازل على شاطىء البحر ، فى حماية الحصن المنيع .

ومرت أعوام ، والحصن والبلدة فى أمان ..

ولكنه امان لم يدم طويلا !

فى داخل المغرب ، كان « السعديون » قد بدءوا ينشئون دولتهم ، بعد أن أدرك الانحلال دولة « المرينيين » وكان الشريف أبو عبد الله محمد الشيخ ، الملقب بالمهدى ، قد اقتطع لنفسه امارة فى « تارودنت » ناحية الجنوب ، وعمل بجد ونشاط لتوسيع رقعتها . وتأمين اطرافها .

تطلع الى الساحل فاذا به يجد الثغور البرتغالية وقلاعها وحامياتها ، تمتد فى حلقات تكاد تكون متواصلة ، من شمال المغرب فى

طنجة ، الى جنوبه فى سانتا كروز . فقرر التخلص من أولئك الاغراب ، فى الاماكن التى يحتلونها بجوار امارته .. وجعل سانتا كروز هدفه الاول ...

وكان ذلك فى سنة ١٥٣٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٤٢ للهجرة .

كان يقود الحامية ، ويحكم البلدة ، فى ذلك الوقت ، رجل ذو ماض مجيد ومواقف فى الحروب مشرفة : النبيل جوتيريز دى مونروى . وكانت تقيم معه فى الحصن ابنته الوحيدة « فرانشيسكا » التى خطبت لشاب من اقارب أسرتها ، ضابط فى الجيش ، اختاره والدها ليحل محله فى قيادة الموقع اذا حدث ما يضطره الى التخلى عنه .

واقترب الموعد المحدد للزواج ، وجعل سكان البلدة وجنود الحامية يمنون أنفسهم باقامة مهرجان وقضاء بضعة ايام فى فرح ومرح، فى تلك المناسبة السعيدة .

وقرروا ان يقدموا للعروس معطفا مصنوعا بأيدى نسائهم ، هدية يوم زواجها .

وحدث ما لم يكن فى الحسبان !

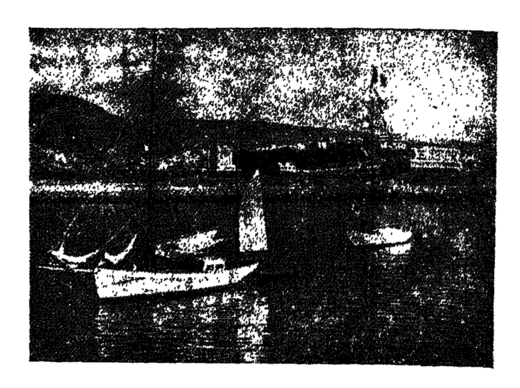
تلقى الحاكم تلك الاخبار المقلقة عن قرب زحف المغاربة على موقع سانتا كروز ، فانذر السكان بالخطر القادم . واعد العدة للصمود ، وأوفدوا بيدرو خطيب ابنته رسولا الى الملك لطلب النجدة ...

وتولت الفتاة نفسها تدريب النساء على الاشتراك مع الجنود والسكان فى أعمال الدفاع . وما مرت أيام حتى كان كل شىء فى الموقع الحصين قد تغير ، وحتى كانت طلائع القوة المغربية الزاحفة قد بدت من بعيد ...

وبدأ الصراع بين الطرفين ...

كان القتال مريرا ...

الشريف محمد المهدى قائد محنك ، وقد رسم لنفسه خطة صمم على تطبيقها بحذافيرها ، للسيطرة على الساحل الجنوبى من البلاد المغربية ، ثم الانصراف الى بسط سلطانه على قلب البلاد وشمالها . ولا بد له من تنظيف الشاطىء من القواعد البرتغالية ، وفى مقدمتها سانتا كروز .



أكدير ...
دمرتها الزلازل في سنة ١٩٦٠

وجوتيريز دى مونروى خصم عنيد ، أقسم للملك بأن يحتفظ له بالحصن المنيع ، الواقع فى طرف السلسلة الطويلة من الحصون المشيدة على الساحل . وهو عازم على البر بقسمه .

تجلت البطولة الحقة من الجانبين ...

كان الهجوم عنيفا ، وكان الدفاع رائعا !

وبدأ جوتيريز يشعر بأن الكفة راجحة لمصلحة خصمه . وأن الصمود لن يطول اذ لم يعد « بيدرو » بنجدة من الرجال والعتاد ، قبل فوات الوقت ..

وكانت فرانشيسكا ، أثناء الحصار ، وكلما اشتدت وطأته ، تبذل جهدها فى استنهاض همم الرجال وتغذية الامل فى نفوس النساء ، مرددة بلا انقطاع ومؤمنة بما تقول : « سوف يصل بيدرو قريبا ، عائدا من الشمال ، ومعه النجدة التى نرجوها ! .. »

ولكن الايام والليالى تمر متتابعة ، وبيدرو لايعود ، والحصار حول الحصن ساعة بعد ساعة ...

الاصابات بين رجال الحامية كثيرة ... المؤن تنقص يوما بعد يوم ... النجدات لا تصل الى البرتغاليين بل تصل الى المغاربة .. الهجوم يشتد والدفاع يضعف ...

وحل الموعد الذى حدده الشريف السعدى للوثبة الكبرى ، لأخذ الحصن عنوة بعد أن فتح الحصار ثغرة فى الاسوار ، وزعزع الثقة فى نفوس المدافعين ...

عند الفجر ، تحرك المغاربة الىالامام وفى طليعتهم الشريفقائدهم، وحوله حاملو الاعلام وضاربو الطبول ، وتصاعدت فى الجو صيحات الحرب من الجانبين ، ودخل الصراع فى مرحلته الفاصلة !

أصيب جوتيريز دى مونروى بجرح فى كتفه ، وهرولت ابنته فرانشيسكا لاسعافه وعلى وجهها فى آن واحد امارات القلق وعلامات الارتياح ، وقالت بصوت ارادته ان يكون ثابت النبرات :

ـ أبى !.. أبى.. أرى قلوع سفينتين فىالافق القريب .. بيدرو .. بيدرو عائد الينا بالنجدة المرجوة .. ابشر ... أبشر يا أبى فان الحصن لن يسقط فى قبضة الاعداء !

واصل جوتيريز اداء مهمته بالرغم من الجرح الذى أصابه والذى لم يكن على جانب من الخطر ولكن الجهود التى بذلها ، والشجاعة التى تجلت فى رجاله ، وقوة الارادة التى تحلت بها فرانشيسكا وصويحباتها من النساء ، كلها ذهبت سدى ولم تنقذ الحصن من مصيره المحتوم !

تمكن المغاربة من اقتحام الاسوار ، فتسلقوا بعضها ، وهدموا بعضها ، ووقعت فى الداخل مذبحة رهيبة ..

وتطلعت فرانشيسكا الى مياه البحر ، حيث كانت السفينتان تتهاديان على مقربة من الشاطىء .فاذا بها تلاحظ أمرا لم تكن تتوقعه !

رأى بيدرو ، بعد أن أصبح فى مواجهة الحصن ، أن المغاربة متفوقون على البرتغاليين ، وأن الدفاع قد انهار ، وان جماعة من المهاجمين قد استولوا على المراكب الصغيرة الراسية على شاطىءالبلدة، وانطلقوا بها فى اتجاه السفينتين .

تردد الشاب ..

وادرك ان نزوله مع نجـــدته الى البر قد أصبح متعــذرا ، او محفوفا بالخطر فلم يقدم على مغامرة قد يكون الهلاك نصيبه منها !

ولما ارتفعت على الابراج اعلام الشريف السعدى ، اصدر بيدرو أمره الى السفينتين بالعودة الى الوراء ...

فطنت فرانشيسكا الى هذا الذى حـدث ، وصاحت بلا وعى ، وبصوت تخنقه عبرات الغيظ : « جبان !.. جبان !.. »

خطيبها يهرب من المعركة قبل أن يخوضها ... وابوها جـريح يواصل قتالا لا أمل فيه .. وجنود يسقطون حولها قتلى او جرحى.. ونساء دب الرعب فى نفوسهن فهربن الى السراديب يختبئن فيها ...

صاحت الفتاة : « أبى ! .. أبى !.. ضع حدا لهذه المجزرة .. فقد وفيت ما عليك ، وقاومت ما استطعت .. وضميرك مرتاح ... فلا عار عليك اذا استسلمت ! »

فطلب جوتيريز دى مونروى الكف عن القتال ... وعرض على الشريف محمد المهدى هدنة يتم بعدها تسليم الموقع بما فيه !

كان النصر حليف المغاربة فى ذلك اليوم ، فقد قتل معظم المدافعين عن الحصن . ووقع الاحياء فى الاسر ، وأصبح موقع سانتا كروز غنيمة للمنتصرين ...

وقال الحاكم البرتغالى لمحمد المهدى : « انا وابنتى بين يديك. فافعل بنا ما تشاء ! » .

واجاب الشريف السعدى : « انت حر طليق . فقد كنت فى دفاعك عن الامانة التى كانت فى عنقك بطلا شجـاعا .. والبقية البـاقية من رجالك ومن سكان البلدة احرار ايضا ... فاذهبوا الى حيث تريدون ... اما ابنتك ، التى شاهدت بطولتها فى القتال كما شاهدت بطولتك، فهى حرة بأن تلحق بك .. او بأن تبقى معنا .. »

دهش القائد البرتغالى مما قاله خصمه المغـربى . وردد قائلا : « ابنتى ... تبقى معكم ؟ .. »

وأجاب محمد المهدى : « نعم ... تبقى اذا أرادت ... زوجة لى ! » .

وفوجىء جوتيريز بابنته تجيب بنفسـها على ما عرضه الشريف السعدى : « أبى !.. اذهبوا انتم .. أما انا ، فباقية هنا .. راضية بأن اربط مصيرى بهذا السيد المغربى الذى انتصر علينا .. سعيدة بأن أبتعد عن الرجل البرتغـالى الذى جبن عن خوض المعركة ، وفر من الميدان ، وخان الوطن والاهل والحب ! »

كرهت الفتاة فجاة الشـاب الذى كانت من قبـل قد وقفت له حياتها ووهبته قلبها . فرضيت بما عرضه الشريف على ابيها، واعتزمت منذ تلك اللحظة أن تستبدل وطنا بوطن ، وقوما بقوم ، وأهلا بأهل !

رحل البرتغاليون عن سانتا كروز عائدين الى بلادهم ..

وكان الوداع مؤثرا بين الفتاة الباقية، ووالدها الحزين، ومواطنيها المغلوبين على امرهم ...

وأرادت النساء أن تحفظ فرانشيسكا لهن مودة تذكرها بماضيها، فقدمن اليها المعطف الذى اعددنه لها هدية ليوم عرسها ..

طلبن منها أن ترتديه يوم يتم زواجهـا ، بعـد أن لعبت الاقـدار بمصيرها ، ومصير خطيبها البرتغالى .

فوعدت بأن تفعـل ذلك . وبأن تذكر صانعات المعطف بالخير فى حياتها الجديدة ...

واتخذ الشريف السـعدى محمد المهدى الفتاة فرانشيسكا ابنـة جوتيريزى دى مونروى زوجة له ...

وأمر باعادة بناء الحصن وتسليم البلدة الى الصـيادين المغـاربة الراغبين فى الاقامة فيها ..

وجعل للحصن حامية تصونه وترعاه ...

واطلق على البلدة وعلى الحصن اسما جديدا، فعرفت سانتا كروز منذ ذلك الوقت باسم « اكدير ارهير » ومعنى هذا الاسم بلغـة البربر سكان الجبال المجاورة « قلعة التل »

وفى سنة ١٥٤٣ للميلاد ، الموافقة لسـنة ٩٤٩ للهجـرة ، تولى

الشريف السعدى محمد الشيخ المهدى الملك فى المغرب ، فكان الثانى من السلاطين السعديين ..

أما البلدة التى غير اسمها ، فقددرج الناس على تسميتها فيما بعد « اغادير » وهى التى دمرها زلزال عنيف فى التاسع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٦٠ – الموافقة لسنة ١٣٧٩ للهجرة ، فاعتزم الملك محمد الخامس العلوى اعادة بنائها ...



اصغت المرأة لصوت الحب ،
ومات حبها وحقدها فى معركة
قتل فيها ثلاثة ملوك !

ظل أبو عبد الله لحظات مفكرا صامتا ، ثم رفع راسه ، ومد يده مداعب جدائل المرأة الجاثية أمامه ومر بأنامله على الجبين الوضاح ، والخد الأملس ، فرمقته بياتريس بنظرات تنم فى آن واحد عن حب وحقد ، وعن رجاء فى أن يجيبها الى ما طلبته منه ...

انها تحبه ...

انها تحقد على أعدائه ...

انها تريد انقاذه من المأزق الذى أوقع نفسه فيه ، لان فى انقاذه فوزا لحبها ، وارضاء لحقدها .

وقال أبو عبد الله :

ــ سأفكر فى هذا يا صديقتى ... وسأوافيك بالرد غدا باذن الله .

ولكنها امسكت بكتفيه وهزتهما بشىء من العنف ، وصاحت قائلة:

ــ كل يوم يمر على هذه الحالة يزيدها تعقيدا ويفقدك فرصة قد لا تعوض ... دعنى أذهب يا محمد ! دعنى أفعل ما عرضته عليك ... فلا سبيل الى الخلاص الا بهذا ...

فسكت أبو عبد الله لحظة اخرى ، ثم تنهد قائلا :

ــ اذهبى ، على بركة الله !

وخرجت بياتريس مهرولة من الحجرة التى حبست نفسها فيها ساعة كاملة لاقناع صديقها بالموافقة على الخطة التى رسمتها له ، وأسرعت الى مراح الخيل فامتطت فرسا أصيلة ، وانطلقت بها تقطع الفيافى والجبال .

الى اين ذهبت ؟ ومن هى؟ ومن هو؟ وماذا تريد الفارسة العجيبة ان تفعل ؟

هو مولاى أبو عبد الله محمد المتوكل ، السلطان الذى اعتلى عرش المغرب بمدينة فاس سنة ١٥٧٣ ميلادية ، الموافقة لسنة ٩٨١ للهجرة خلفا لأبيه ، ولكنه فاز بالعرش دون أن يفوز ببيعة العلماء ، ورضى اسرته ، ومحبة شعبه .

وما ان مرت شهور على اعتلائه العرش ، حتى هب عمه أبو مروان عبد الملك لاقصائه عنه ، فتم للعم طرد ابن أخيه من العاصمة ، ونادى بنفسه سلطانا ولقب بالمعتصم . واضطر أبو عبد الله محمد المتوكل الى الهرب فلجأ الى مدينة مراكش .

أما هى ، المرأة ، فأسيرة برتغالية عاشت فى كنف الاسرة السعدية المالكة ، وتوثقت عرى الصداقة والمحبة بينها وبين محمد ، فرفضت الحرية يوم أراد السلطان ، وأراد أبوه من قبله ، اطلاقها من الاسر ، وآثرت البقاء فى فارس ، على العودة الى قومها ووطنها البرتغال .

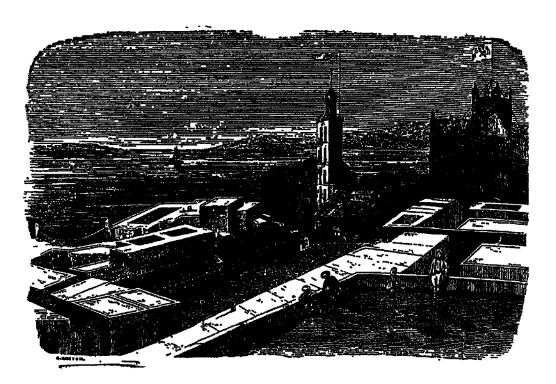
وأما ما عرضته على صديقها فى ذلك اليوم ، بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، وأحاط به الخطر الداهم ، فأوشك أن يفقد الحياة بعد أن فقد العرش ، فهو ان يلجأ الى البرتغال ، ويستعين بالملك سباستيانو الجالس على عرشه فى لشبونة ، ويحالفه على عمه عبد الملك ، ويتعاقد معه على العمل معا ، هو فى سبيل استرجاع الملك ، والملك البرتغالى فى سبيل الاحتفاظ بممتلكاته على سواحل المغرب ، وتوسيع رقعتها بعد النصر .

تردد أبو عبد الله فى بادىء الامر ، ولكن حب السلطة ، والرغبة فى الثأر من عمه ، والخوف من فقدان الثروة والجاه ، كل ذلك دفعه الى قبول ما عرضته عليه بياتريس البرتغالية ، فأذن لها بأن تسبقه ، على أن يلحق بها بدون ابطاء .

ولحق بها . والتقى الاثنان مع فريق من الاعوان عند الساحل بالقرب من طنجه ، وركبوا البحر ميممين شطر البرتغال .

وهناك تعاقد السلطان الهارب من المغرب ، مع الملك الطامع فى احتلال المغرب ، على العمل معا فى سبيل الهدفين : السلطان المغربى لاسترجاع عرشه بمساعدة الملك البرتغالى ، والملك البرتغالى لضمان سيادة البرتغال على السواحل المغربية بما فيها من ثغور .

وعلم عبد الملك ، فى عاصمته فاس ، بما تم بين ابن أخيه الهارب منه ، وسباستيان الذى أجاره ، فأوفد من يعرض على الملك البرتغالى



صـورة قديمة لمدينة طنجة ، على السـاحل المغربى ، تجاه السـاحل الاسـبانى

شروطا مغرية ، لحمله على التخلى عن حليفه ، وعدم المجىء الى المغرب على رأس حملة عسكرية للغزو والفتح .

غير ان ملك البرتغال ، وهو شاب فى مطلع العقد الثالث من العمر ، داخله الزهو والغرور ، لما رأى سلطانا يلجأ اليه ، وآخر يتملقه بالوعود ، فطرد رسل عبد الملك ، وأصدر فى الحال أوامره بتعبئة الجيش والاسطول ، واعداد العدة للحرب والقتال !

وفرحت بياتريس بما لقيته مساعيها من نجاح ، فقد وجدت عروضها آذانا صاغية لدى الملك الشاب ، لأن سباستيان كان يفكر ، منذ أن اعتلى العرش ، فى الاقدام على مغامرة جريئة للاستيلاء على الثغور المغربية . ولما لجأ اليه أبو عبد الله ، بتحريض من المرأة التى أحبته ، رأى فى ذلك اشارة من الاقدار بأن يقدم فى الحال على ما اعتزم القيام به ، لان معونة فريق من المغاربة على الفريق الآخر نعمة سيكون لها فى سير القتال وبلوغ النتائج وزنها وقدرها .

واقلعت السفن البرتغالية بالحملة التى اعدها الملك الطامع ، والتى ضمت ، بخلاف جنوده ، مرتزقة من الالمانيين والايطاليين والاسبانيين، فضلا عن انصار أبى عبد الله الذين التحقوا بالحملة على اثر نزولها الى البر المغربى ، بين طنجة والعرائش .

واستولى الغزاة على هاتين المدينتين بعد قتال شديد .

وظن ابو عبد الله ان الحظ قد هجر صفوف خصومه واستقر فى صفه هو ، وظن سباستيانو ايضا ان فتح المغرب بأسره أصبح ميسورا وفى متناول يده ، ما دام النصر قد حالفه فى المرحلة الاولى من مراحل الحرب العدوانية التى أقدم عليها .

ولكن سباستيانو كان مخطئا فى ظنه ، وكان أبو عبد الله محمد المتوكل أيضا مغرورا بنفسه ، وكانت فرحة بياتريس البرتغالية سابقة لأوانها .

فقد أعد مولاى أبو مروان عبد الملك المعتصم ، لمواجهة الخطر الزاحف ، خطة مدروسة مرسومة بدقة وضعها بالاشتراك مع اثنين من نوابغ القواد فى ذلك العصر : أولهما اخوه أبو العباس أحمد ، الذى أيده وعاونه ومشى معه الى الميادين منذ اللحظة الاولى التى هب فيها لأخذ العرش من ابن أخيه محمد ، والثانى قائد الفرسان «رضوان» وهو أوربى التحق بخدمة السعديين بالمغرب وربط مصيره بمصير عبد الملك المعتصم .

دارت رحى القتال بين الفريقين ، وتتابعت الايام بين كر وفر ، وتنقل النصر من صف الى صف ، ومن جيش الى جيش ، ولكن الغزاة القادمين من الخارج ، وحلفاءهم من المغاربة انصار السلطان الطريد محمد المتوكل ، لم يتمكنوا من التوغل فى داخل البلاد ، ولم يستطيعوا الصمود الا فى المعاقل التى أنشأوها وحصنوها واعتصموا فيها على طول الساحل .

واخيرا ، قرر عبد الملك أن يضرب ضربة قوية أراد أن تكون القاضية ، فعهد الى أخيه ابى العباس احمد بأن يجمع له ما استطاع من رجال الحرب ومن معدات القتال ، وقصد على رأس جيش ضم كل قواته ، الى حيث كان سباستيانو وحليفه محمد وأنصارهما يرابطون فى السهل الممتد حول مدينة « القصر الكبير » .

يقول المؤرخون الافرنج أن عدد المغاربة كان خمسين ألفا . ويقول

المؤرخون العرب ان عدد المغاربة كان فعلا خمسين الف مقاتل ، بينهم اربعة آلاف من الاوربيين الذين التحقوا بخدمة السلطان ، والفين من جنود المدفعية ، ولكن البرتغاليين وحلفاءهم كانوا مائة ألف لا ثلاثين ألفا فقط ، وكان بينهم بضعة آلاف من الفرسان ، ومعهم ستة وثلاثون من المدافع الضخمة !

وصل عبد الملك المعتصم الى سهل القصر الكبير ، فاذا به يجد جيش الاعداء مصطفا فيه استعدادا للقتال، على ضفاف نهرين يخترقان السهل من الغرب الى الشرق ، وقد أحاط نفسه بسور من مركبات النقل وغصون الاشجار .

وفوجيء المعتصم بمرض أقعده عن الحراك ، ومنعه من آن يتولى بنفسه قيادة المعركة ، ولكنه أمر بأن تصنع له محفة فى داخلها فراش ووسائد . فكان له ما اراد ، واضطجع السلطان المريض فى ذلك السرير المحمول على الاكتاف ، واشرف منه على تطور الحالة لحظة بعد لحظة.

عهد الى أخيه ابى العباس احمد بأن يتولى القيادة مكانه ، فنشر احمد جيشه تجاه العدو ، وفاقا لخطة لم يرسمها من قبل بل استوحى تفاصيلها من كيفية انتشار البرتغاليين وحلفائهم فى السهل .

وكان المغاربة هم البادئين بالقتال . فقد صبوا نيران مدافعهم على جناحى العدو ، ثم أطلقوا فرسانهم لملاقاة فرسانه فى الميدان .

كان ذلك فى اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٥٧٨ ميلادية الموافقة لسنة ٩٨٦ هجرية وأشعة الشمس تسكب حرارتها من الجو فتمتزج بحرارة النيران المنبعثة من فوهات المدافع والبنادق والقذارات.

معركة رهيبة ، جرت فيها الدماء غزيرة من الجانبين ، وصبغت الارض وحولت مياه النهرين الى أوحال قانية .

تضعضعت صفوف الفرسان البرتغاليين فانطلقت خيولهم ترمح فى السهل وعلى السفح على غير هدى ، وانطلقت فى أثرها خيول المغاربة فى مطاردة ارتوت فيها السيوف والرماح من الخوض فى الصدور والنحور .

وجاء دور المشاة بعد دور الفرسان !

كان السلطان عبد الملك فى محفته ، يفتح عينيه لحظة ، ثم يغمضهما

منهوك القوى . ولكن امارات الغبطة والارتياح كانت مرسومة على وجهه بالرغم من الشحوب الذى علاه .

واقترب رضوان من المحفة لتحية السلطان بالنيابة عن أخيه أحمد ، المنهمك فى اصدار أوامره الى الكتائب الزاحفة لتطويق العدو .

واذا بالقائد يتراجع ، ويسدل ستائر المحفة ، وينادى أربعة من حراسه ، ويأمرهم بأن يسهروا على راحة السلطان ولا يسمحوا لأحد بأن يرفع الستائر عن المحفة .

كان السلطان عبد الملك فى الواقع قد أسلم الروح !

مات والمعركة محتدمة . وأراد رضوان أن يخفى الخبر عن الجيش فصاح بأعلى صوته ، وأمر مساعديه بأن يطلقوا الصيحة مثله : « ان مولاى عبد الملك المعتصم يأمر الجيش بالزحف ، والقاء العدو فى مياه النهرين ! »

وهجم الجيش المغربى . وضرب ضربته القاضية بقيادة أبى العباس أحمد ، ومعاونه رضوان .

وتشتت الاعداء فقتل معظمهم ، وفر القليلون الباقون على قيد الحياة ، وهم لا يلوون على شىء .

كان النصر تاما كاملا شاملا !

ولكن الموت حصد فى تلك المعركة رءوس الذين أعدوا المجزرة !

مات أبو مروان عبد الملك المعتصم فى محفته ، قبل أن ينتهى القتال !

وغرق أبو عبد الله محمد المتوكل ، وهو يجتاز النهر سباحة طلبا للنجاة من الاسر أو من الموت فى الميدان !

وكان هذا أيضا مصير حليفه الملك سباستيانو البرتغالى ، الذى جرفه التيار فغرق مثل السلطان الطريد .

وكانت بياتريس البرتغالية قد اشتركت فى القتال بجانب صديقها المغربى وملك بلادها البرتغالى ، فحاولت ان تنقذ الحليفين من الغرق ، ولكنها غرقت مثلهما .

ولمـا غابت الشمس وراء الأفق ، وبدأ الليل يسدل ستره على الميدان الرهيب ، كان كل شيء قد انتهى .

الجيش البرتغالى لم يبق له أثر !

وحلفاؤه المغاربة انصار المتوكل القوا سلاحهم وطلبوا الامان !

وجيش المغرب أصبح فى وسعه ان يسترد فى بضعة أيام ما كان البرتغاليون قد استولوا عليه من ثغور المملكة .

وأبو العباس احمد أصبح جديرا بأن يلقب بالقائد «المنصور» وبأن ينادى به سلطانا خلفا لأخيه .

وهذا ما حدث ؟

وعرفت تلك المعركة باسم « معركة القصر الكبير » لانها وقعت على مقربة من هذه المدينة . وعرفت أيضا باسم « معركة الملوك الثلاثة » لان الموت اختطف فى أثناء المعركة أبطالها الثلاثة : السلطان الطريد محمد المتوكل ، والسلطان المريض المعتصم ، والملك الغريب سباستيانو .

والرابع هو الذى خرج حيا من المعمعة ، فاعتلى عرش المغرب ، وعرف باسم مولاى أبى العباس أحمد المنصور ، ولقب أيضا بالذهبى ، وحكم المغرب خمسا وعشرين سنة ، وكان عهده مفعما بالخير والرخاء والمجد .

بعد انتهاء المعركة ، أمر القائد المنصور أبو العباس أحمد بأن تنقل جثة أخيه عبد الملك لتدفن فى مشهد لائق بمقامه . وأن تنقل جثة ابن عمه محمد المتوكل وتسلم لأنصاره لكى يواروها الضريح حيث يريدون. وان تسلم جثة الملك سباستيانو الى ذويه ورعاياه ، ليحملوها الى حيث يشاءون .

أما جثة بياتريس ، فقد وقف أمامها القائد مندهشا ، وتساءل من أين جاءت هذه المراة ، ومن الذى جاء بها ، وما حملها على خوض غمار المعركة بين صفوف الرجال .

وما وقع عليها نظر رضوان ، قائد الفرسان الاوربى الذى اعتنق الاسلام ودخل فى خدمة سلاطين العرب حتى امتقع وجهه ، واغرورقت عيناه بالدموع .

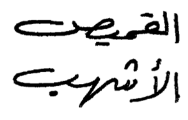
خطا خطوتين نحو الجثة الممددة على الارض ، ثم ركع أمامهـ
ركبتيه ٠٠٠

واقترب منه أبو العباس ، وربت على كتفه ، ونظر الرجلان ا
منهما الى الآخر ، فقرأ رضوان فى عينى رئيسه علامة استفهام ٠
قائلا :

ـ هذه بياتريس ٠٠٠ زوجتى ! ٠٠

٠٠ هجرتها منذ أن هجرت بلادى ٠٠٠ وكنت أعرف انهـا
أسيرة فى أيدى المغاربة ، وانها ربطت مصيرها بمصير المتوكل٠٠٠و
الآن لماذا لجأ الرجل الى الملك سباستيانو ، ومن الذى حرض الاثنين
غزو المغرب ٠٠٠ لقد فعلت بياتريس ذلك لسببين : أرادت أن تنقذ الم
لانها أحبته ، وأرادت أن تنتقم منى لانى هجرتها !٠٠٠

ولم يكن رضوان مخطئا : فقد أصغت بيـاتريس لصوت الم
وأصغت لصوت الحقد ٠٠٠ ومات حبها وحقدها معها فى معركة
الثلاثة ، بالقرب من القصر الكبير !



قصـــة اللون الذى ابتكرته الطبيعة ، وقلده أرباب الصناعة العرب ، وحمـــل اسم أسرة أفرنجية !

كان الحديث مشـــبعا بالمحبة والاحترام المتبادلين ، بين ايزابيلا الاسبانية ويمامة العربية ، أمام تلك النـــافذة المطلة على حدائق قصر اسكوريال ، مقر ملوك أسبانيا الرابض بين الجبال الوعرة ، على مسافة غير بعيدة من العاصمة مدريد ٠

وكان محور الحديث رغبـــة ايزابيلا فى أن تصحبها يمـــامة الى ديار الغربة ٠٠٠

ـ رأيتك فى المنام أيتها العزيزة ٠٠٠ كنا معا على ظهر سفينة تتهادى بنا على صفحة الماء ، فى طريقها الى الشمال ، الى بلاد «الارض المنخفضة» مقر اقامتى من الآن فصاعدا ٠٠٠ فلا تكذبى الحلم الذى ما هو فى الواقع غير أمنية يختلج بها صدرى ٠٠٠ لم أرفض لك رجاء منذ اليـــوم الذى عرفتك فيه ٠٠٠ فلا ترفضى لى اليوم هذا الرجاء ٠٠٠

ترددت يمامة فى بادىء الامر ، وتوجست خيفة من الرحيل عن بلد ولدت ونشأت فيه ، الى بلد غريب لا تعرفه ، ولا أهل لها فيه ولا أصدقاء ٠

ولكن ترددها لم يطل ٠ فالعوامل التى تفرض عليها القبول ، أقوى بكثير من العامل الذى يوحى اليها بالرفض

ان ايزابيلا، ابنة الملك فيليب الثانى ، قد أصبحت زوجة للارشيدوق ألبيرت ، ابن امبراطور النمسا مكسيميليان الثالث ، الذى حله البابا من قسمه الكهنوتى كأسقف وكاردينـــال ، وأجاز له أن يتزوج ويضطلع بواجبات المنصب الذى عهد به اليه فيليب الاسبانى ، كحـــاكم للارض المنخفضة التابعة لاسبانيا ، والتى قدمها الملك هدية عرس لابنته المحبوبة٠

أما تعلق الاميرة ايزابيلا بالمرأة العربية ، فسببه أن يمامة عالجتها من مرض خطير بدواء مصنوع من الاعشاب ، فشفيت المريضة ، واستولى على قلبها العرفان بالجميل ، فأصبحت لا تطيق أن تبتعد عنها « الطبيبة » كما كانت تسمى يمامة ، وراحت تغدق عليها النعم والعطايا بلا حساب ٠

ولهذا ، فقد تنفست الصـــعداء لما أجابتها صـــديقتها الى ما طلبته

منها ، وتعهدت لها بان ترافقها الى مقر اقامتها الجديد ، بعيدا عن وطنها الأسبانى • وقالت لها أنها واثقة من أن .باها ــ وهو ولى أمرها ــ لن يعارض فى سفرها ، بالرغم من الظروف الخاصة التى تعيش فيها أسرتها العربية فى الارض الاسبانية •

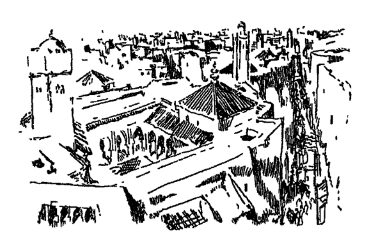
فيمامة ابنة «يوسف الصباغ» من أم آسبانية • وأبوها حفيد «صالح الصباغ » من نصارى دمشق • وهو الذى ورث عن أسلافه ثروة كبيرة ، وأخذ عنهم الاتقان والدقة فى دباغة الجلود وصباغة الأقمشة والأنسجة ، وهى صناعة راجت وازدهرت على أيدى أفراد الاسرة الشامية فى الاندلس، وعلى الخصوص فى مدينة غرناطة حيث استقر الجد الأكبر لآل « الصباغ » وأول من حمل هذا الاسم المستمد من صناعته •

لما انتهى الحكم العربى بالاندلس ، فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وأوائل القرن العاشر الهجرى ، ونزحت عن «الفردوس المفقود» جموع الشعب المغلوب على أمره ، واجتازت البحر الى ديار المغرب ، مع الملك أبى عبد الله محمد ، عمد الملك فرديناندو الذى آل اليه الحكم فى أسبانيا كلها ، الى منع فريق كبير من أرباب الصناعات المختلفة ، من الرحيل مع الهاربين • وكان آل الصباغ من هذا الفريق • وبقى معهم فى غرناطة آل «البيطار» وهم من أسرة نصرانية أصلها من بيت المقدس ، وآل «العواد» وهم من مسلمى حلب الذين توارثوا العزف على العود والقانون واستوطنوا الاندلس قبل الكارثة بقرن أو أكثر •

ومرت الاعوام • وتطورت الأحوال ، وكان الحكام الاسبانيون يعاملون العرب بالقسوة حينا ، وباللين حينا ، وكان العرب يخلدون الى السكينة أو يثورون على الاوضاع الجديدة ، حسبما تكون المعاملة التى يلقونها من أولياء الأمر حسنة أو سيئة •

وفى أواخر حكم فيليب الثانى ، كان يوسف الصباغ عميد أسرته ، التى ظلت تمارس صناعتها • أما أسرة «العواد» فلم يبق منها غير واحد هو عامر .العواد ، الذى اعتزل الغناء والعزف ، وشارك صديقه يوسف فى صناعته •

وتزوج الصباغ فتاة أسبانية رزق منها ابنتين ، ماتت احداهما فى سن الطفولة ، وتزوجت الثانية ، وهى يمامة الشاب حمدان « البيطار » آخر من كان باقيا على قيد الحياة من الاسرة التى اشتهرت بتربية الخيول وترويضها • وقد مات حمدان بعد زواجه ببضعة شهور ، فانقرضت



أسرته ، وعادت زوجته يمامة الى بيت أبيها ٠ ولما ماتت أمها الاسبانية ، كرست نفسها للعناية بذلك الاب الذى أفرغ فيها حبه وحنانه ٠

وكانت يمامة قد تعلمت من زوجها طبيب الخيول ، اعداد وصفات عربية من مختلف أنواع النباتات ، ثبت لحمدان البيطار انها تشفى فى آن واحد من بعض أمراض الحيوان والانسان على السواء ٠ فصارت المرأة تعالج بها من يلجأ اليها من المرضى ، وبدون مقابل ، لا فرق عندها بين عربى وأسبانى ٠ وذاعت شهرة «الطبيبة» العربية فى غرناطة وفى غيرها من المدن الاسبانية ، التى كان لأبيها وشريكه فيها فروع للدباغة والصباغة ، والتى كانت تتردد عليها معهما من وقت الى آخر ٠٠٠

وطرقت تلك الشهرة أبواب القصور الملكية ٠

أصيبت الاميرة ايزابيلا ، ابنة الملك فيليب الثانى ، بذلك المرض المجهول الذى حار الأطباء فى تصويره وعلاجه ، فهمست فى أذن المريضة احدى الوصيفات قائلة :

ـ لماذا لا تستدعى مولاتى الطبيبة العربية يمامة وهى اليوم تقيم فى المدينة ؟

والمريض اليائس يتعلق بحبال الامل !

دخلت يمامة قصر الملك ٠ ولقيت ايزابيلا الشفاء على يدها ٠ وكان ذلك هو الخيط الاول فى نسيج الصداقة التى حاكتها الايام بين المرأتين :

الاميرة الاسبانية البـــالغة من العمر ثلاثين عاما ، والطبيبة العربية التى اتفق ان كانت فى هذا العمر أيضا ٠

ومضت سنتان ، لم تسمح ايزابيلا فى خلالهما لصديقتها بأن تغادر العاصمة ، بل خصتها بحجرة فى القصر الذى تقيم فيه ، وكانت تصر على أن ينزل أبوها أيضا ضيفا عليها ، اذا ما أراد أن يزور ابنته ٠

وفى سنة ١٥٩٨ ميلادية الموافقة لسنة ١٠٠٧ هجرية ، قرر الملك فيليب الثانى أن يتم ذلك الزواج السياسى بين الابنة التى يخصها بحبه ، والأمير الذى أعده ليكون حاكما وملكا ، ألبيرت النمساوى ٠

وهال ايزابيلا أن تفترق عن صديقتها العربية فألحت عليهـــا بأن ترافقها الى الارض المنخفضة ، ولم تمانع يمـــامة فى النزول عند رغبة العروس ٠

الاضطراب يعم البلاد التى ذهب البيرت وزوجته ايزابيلا ليتسلما مقاليد الحكم فيها ، وهى تشمل هولندا وبلجيكا وجزءا من أقاليم فرنسا الشمالية الغربية ٠ فاضطرا الى خوض غمار حرب دامية ، واجها فيها الجيش الفرنسى من ناحية ، وقوات الامراء المحليين من ناحية أخرى ٠

ومات فيليب الثانى فى السنة التى تزوجت فيها ابنته الارشيدوقة ، وخلفه ابنه فيليب الثالث ، فأقر أخته وزوجها على ولايتهما ، ووافاهما بالنجدات المتوالية ، فوسعا شقة الحرب ، وكان ألبيرت يقـــود جيوشه بنفسه ، فذاق نشوة النصر ومرارة الهزيمة ، ولكنه عرف كيف يقطف ثمرة النصر ، وكيف يتجنب اليأس بعد الهزيمة ٠

وظلت ايزابيلا ملازمة له ، فى السراء والضراء ، ترافقه الى ميادين القتال ، وتسهر على راحته ، وتعنى بصحته ٠ وظلت يمامة أيضا ملازمة لصديقتها مثل ظلها ، وكثيرا ما كانت الطبيبة العربية تستخدم وصفاتها وعقاقيرها لمعالجة الجرحى والمرضى من أولئك الاغراب الذين أرادت لهـــا الاقدار أن تعيش بينهم ٠

كانت مدينة « أوستاند » أمنع المعاقل الحصينة التى لابد من الاستيلاء عليها ، لكى يستتب الأمر للارشـــيدوق وزوجته ٠ فضرب عليها البيرت الحصار من الجهات الاربع وأقسم أمام قواد جيشه على ألا يرتد عنهـــا قبل أن تسقط فى قبضته ٠٠٠

وأضاف الى هذا القسم المألوف بين الغزاة والفاتحين ، قسما آخر جاء فريدا فى نوعه وشكله . فقال لزوجته على مسمع من معاونيه :

ـ ايزابيلا ... احفظى ثيابى فى صندوق محكم الاقفال ... فاننى أقسم الآن أمام الله والناس ألا أنزع القميص الذى على جسدى وألبس قميصا غيره ، الا بعد أن أدخل هذه المدينة منصورا وأغير ثيابى فى قصر الحاكم ! ..

واستغرق حصار اوستاند ثلاثة أعوام ! .

وتمسك البيرت بقسمه المزدوج .. لم يرفع الحصار عن المدينة ، بل ضيق عليها يوما بعد يوم ، ولم تستطع زوجته اقنـــاعه باستبدال قميصه !

ولما اقتحم جيشه أسوار اوستاند ، واستولى على المدينة العاصية ، نزع الارشيدوق قميصه عن جسده ، وقال لايزابيلا :

ـ الى الآن بقميص آخر !

بعد ثلاثة أعوام على الفوه بالقسم وعلى بدء الحصار ، تغير لون القميص : كان ناصع البياض ، فأصبح ذا لون أشهب ، من كثرة ما علق به من غبار وتراب وعرق ودخان . ولم تمزقه ايزابيلا ، ولم تغسله من قذارته ، بل احتفظت به كما هو ، وقالت لزوجها :

ـ سيكون هذا القميص أيها الحبيب أعز تذكار عندى لهذا النصر الذى أحرزته فى اوستاند . أما هذا اللون الغريب الذى اصطبغ به خلال الحصـــار ، فاننى أتبناه وأريد أن يعرف فى مســـتقبل الايام باسم « ايزابيلا » !

وفى مساء ذلك اليوم ، فى سنة ١٦٠٤ للميلاد ، الموافقة لســنة ١٠١٣ للهجرة عادت الاميرة الاسبانية الى التحدث مع صديقتها العربية عن الماضى وذكريات الايام السالفة ، تحت سماء الاندلس .

وتلاطمت الشجون فى صدر يمامة ، واستبد بها الشوق الى البلد الذى رأت فيه النور ، والحنين الى الاسرة التى طالت غيبتها عنها ، فنفرت الدموع من عينيها ، بالرغم منها .

وأدركت ايزابيلا ماتعانيه العربية من آلام نفسية ، فقالت لها :

ـ يمامة ... لن أفرض عليك البقاء معنا بعد اليوم ، فقد جلبت

لى الحظ كما كنت أرجو ، ولابد أن يخيم السلام على هذا البلد ، بعد أن تحققت آمالنا وتم لنا النصر فى هذه الحرب ٠٠ أتريدين العودة الى الأندلس ؟

ــ نعم ٠٠ اذا كنت تسمحين ٠

ــ يمامة ٠٠٠ أنت عنوان المحبة والوفاء ٠٠ لقد رجوتك بأن تأتى معى الى هنـــا ٠ فجئت والآن ، ارجوك أن تعودى الى أهلك وذويك ، وسأوفر لك جميع أسباب الراحة فى الطريق ٠٠ ولكن لى رجاء آخر ، هو فى الحقيقة مهمة أرغب فى أن أكلفك بها ، لدى أبيك الطبيب ، الذى حرم نفسه من ابنته ، كيلا أحرم أنا من صديقتى ٠

ــ أنا طوع أمرك ٠

ــ خذى هذا القميص الاشهب ، الذى سيعرف باسم «ايزابيـــلا» وقولى ليوسف الصباغ وشريكه عامر ، اننى أرغب اليهما فى ادخال هذا اللون الجديد بين الالوان التى يصبغان بها الاقمشة والانسجة، فان أمنيتى بعد الآن أن ينتشر هذا اللون بين الناس ، ويعم اسبانيا والارض المنخفضة وكل بلد ترفرف عليه أعلام أخى الملك وزوجى الارشيدوق ٠

ــ سأحقق لك هذه الامنية ، أيتها الاميرة العزيزة ، وآمل أن تحققى أنت الامنية التى تقابلها فى صدر يمامة التى أحبتك وأخلصت لك ٠

ــ سأحققها ، أيا كانت هذه الامنية ٠

ــ أريد منك أن تكونى واسطة خير بين أخيك الملك ، وبين أسرتنا ، اننى أعرف أن أبى وشريكه عامر يرغبان فى الرحيل عن اسبانيا ، واتخاذ بلاد المغرب الأقصى وطنا لهما ٠

ــ سأطلب من أخى فيليب أن لايمانع فى ذلك ٠

فأخذت يمـــامة القميص الأشهب ، وتعانقت الصـــديقتان ، وكان الفراق أليما شديد الوقع على المراتين الوفيتين ٠

فى غرناطة ، حيث وافت يمامة اباها بعد غياب دام أكثر من ستة أعوام بذل يوسف الصباغ جهده وبراعته فى تكييف صباغة الكتان باللون الاشهب «الايزابيلى» المطابق للون القميص الذى حملته ابنتـــه معهـــا ، فجاءت النتيجة محققة لامنية ايزابيلا الى غمرها الفرح يوم تلقت القطعة الاولى من النسيج الفاخر المصبوغ باللون الذى يحمل اسمها ٠

واقبل الناس على شراء الكتان الأشهب ، فانتشر فى أنحاء اسبانيا وبلاد الارض المنخفضة ، ولقن يوسف الصباغ فنه ، وأفضى بسر مهنته ، الى بعض اصدقائه من العرب والاسبانيين المشتغلين فى صناعته .

وفى سنة ١٦٠٦ ، رحل الشريكان ، يوسف وعامر ، الى بلاد المغرب واستقرا فى مدينة «القصر الكبير» حيث التقيا بكثيرين من العرب النازحين من اسبانيا ، وكان ذلك فى عهد الشرفاء السعديين .

وأنشأ الرجلان هناك صناعة جديدة ، وأدخلا على اشكال الصباغة والدباغة ألوانا غير مألوفة ، ومن بينها اللون الأشهب الايزابيلى ، الذى أطلق عليه الناس فيما بعد اسم «اللون السوسنى» .

كان يوسف الصباغ قد جاوز السبعين من العمر ، وكان شريكه عامر العواد اصغر منه بعشرين سنة أو أكثر .

وقال يوسف لعامر ، فى مساء يوم ممطر ، وهما يرتشفان ماء النعناع الذى أعدته لهما يمامة :

ـ ياعامر .. اشعر بدنو أجلى .. وستكون انت الوارث لجميع أسرار المهنة التى اشتهرت بها أسرتى ، واستمدت منها اسمها ، أما ثروتى فانها عائدة الى ابنتى الوحيدة ، وهى البقية الباقية من هذه الاسرة .

فقالت يمامة ، محاولة أن تبدد الافكار السوداء التى تساور أباها :

ـ سوف تعيش طويلا يا أبى ، وسوف تشملنا بركاتك أعواما عديدة أخرى .

ـ لا ياابنتى .. ان الاعمار بيد الله .. والأجل أصبح قريبا .. وسأرحل مطمئنا عن هذا العالم ، لو تحققت لى من الآن أمنية ليست وليدة هذه الساعة ، بل يرجع منشأها الى اليوم الذى أصبح فيه عامر وحيدا فى هذه الدنيا ، بعد وفاة زوجته ، منذ ثلاثة أعوام .

أدرك الشريك ، وأدركت الابنة ، ماذا يعنى يوسف الصباغ بهذه العبارات .

وتحققت امنية الشيخ الذى عاش سنواته الاخيرة مطمئن البال قرير العين ، فى بيت واحد مع ابنته يمامة وزوجها عامر العواد .

واتسعت صناعة الصباغة وازدهرت ازدهارا بعد موته ، وأصبح

اللون الاشهب «الايزابيلى» كمـــا كان يسمى فى اسبانيـــا ، والاشهب «السوسنى» كما كان يسمى فى بلاد العرب المغاربة والمشارقة ، من الالوان الرائجة التى يقبل عليها الرجال والنساء على السواء ، وظلت يمامة الطبيبة العربية ، توافى صديقتها الاسبانية ايزابيلا بالكتان المصبوغ باللون الذى تحبه ، حتى وافاها الأجل فى عام ١٦٣٣ ، وكان زوجها آلبيرت قد سبقها الى العالم الآخر ، فى عام ١٦٢١ ٠

أما عامر العواد وزوجته يمامة بنت الصباغ ، فقد رزقا ذرية حافظت على صناعتهما واتقانها وسمعتها ، أعواما عديدة فى مدينتى القصر الكبير وفاس ، بالمغرب الاقصى ، وفى الديار المصرية والشامية ٠

مصرنا ..
سلطانة المغرب

كان مواطنوها يسمونها « المغربية » والمغاربة يسمونها « الافرنجية » ، وقد خدمت الوطن الذى تبناها بأمانة واخلاص *

كان الجنرال «جورجو» رفيقا لنابليون الاول فى منفـــاه بجزيرة «سانت هيلين» ، وقد نقل فى مذكراته العبارة الآتية عن لسان الامبراطور العظيـــم : (كانت ســـلطانة المغرب فى ذلك الوقت فرنسية من جزيرة كورسيكا • وقد جاء أخوها (فرانشسكينى) الى باريس وعرض على وزير الشئون الخارجية أن يسافر الى المغرب ويعمل لمصلحة فرنسا • فاعتقدت فى بادىء الامر أن فى المسألة نصبا واحتيالا ، ولـكن الوزير تثبت من الحقيقة فأعطيته ثلاثين ألف فرنك لهذا الغرض • وقد كللت المفاوضات بالنجاح ، وبسط امبراطور المغرب حمايته علىّ الفرنسيين هناك وأسدى الينا خدمات جليلة • فأرسلت اليه هدايا بنصف مليون فرنك» •

هذا ما قاله الامبراطور الفرنسى للقائد الذى عاش معه فى المنفى • فمن هى تلك السلطانة الفرنسية التى تحدث عنها ، والتى ولدت مثـله فى جزيرة كورسيكا ؟

اسمها «مرتا فرانشسكينى» واسم أبيها «جـاك ماريا» وهو من سلالة الكونت فرانشسكو كولونا ، النبيل الرومانى الذى استوطن جزيرة كورسيكا سنة ١٥٠٠ • وقد ولدت مرتا فى ٢ من يونيو سنة ١٧٥٦ ببلدة كوربارا الصغيرة ، الرابضة بين الصخور على سفح جبل يشرف على البحر •

وكان البحر فى ذلك الوقت مسرحا لاعمال القرصنة ، يتبارى فيه القراصنة المنطلقون من موانى ايطاليا وفرنسا وتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، وكانت جزيرة كورسيكا عرضـــة لغزوات القراصنة من العرب والبربر ، الذين كانوا ينزلون على شواطئها ، ويسبون النساء والبنـــات والشبان ، ويبيعونهم فى أسواق الرقيق جريا على العادة المتبعة فى ذلك العهد ، حيث لم يكن الرق قد ألغى بعد ، وحيث كان الانسان يستعبد الانسان ، والشعوب تستعبد الشعوب •

وحدث ذات يوم أن هبطت أسرة فرانشسكينى من بلدتها الى شاطىء البحر فى نزهة مسائية ، فداهمها القراصنة وخطفوهـــا وحملوها الى

سفينتهم قبل أن يتمكن رجال البلدة من نجدتها ، فوقفوا على الشاطىء ينظرون الى السفينة تبتعد وعليهـــا جاك ماريا وزوجته وولداه فنشنتى وأوغستينو وابنته مرتا الصغيرة .

وانقطعت اخبار الاسرة بضعة أعوام .

وفجأة عاد الرجل والزوجة والولدان الى كورسيكا ، فرحب بهـم أهل البلدة ، وسألوهم بلهفة عن مصير الطفلة مرتا ، فقص عليهم جـاك ماريا قصته قال :

«ذهب بنا القراصنة الى تونس حيث عرضونا للبيع فى ســـوق الرقيق ، فكان من حسن الحظ أن ابتاعنا احد وكلاء الباى فاقمنا جميعا فى قصره ، وعوملنا معاملة حسنة ، ولكننا كنا فى عداد الاسرى الارقاء ، نقوم بالأعمال التى يعهد الينا بها ، ونبكى الحرية الغالية والوطن المفقود . ولم يكن بوسعنا أن نفكر فى الهرب لتعذر وسائله ولشدة الرقابة عنـد منافذ المدينة وعلى شاطىء البحر، فرضخنا لحكم القدر وبتنا ننتظر الخلاص من الرب القادر على كل شىء !

« قضينا فى الأسر والعبودية ثلاثة أعوام ، كنت فى خلالهـا قـد انصرفت الى دراسة اللغة العربية فأتقنتها قراءة وكتابة ، وكان الله قد استمع الى صلواتنا ، فقدر لى أن أطلع مصادفة على سر مؤامرة دبرها فريق من الضباط والجنود لاغتيال سيد البلاد ، واسمه سيدى على باى ، فأفضيت اليه بما علمت من أخبار المتآمرين ، وكنت سببا فى انقاذ حياته ، فأغدق على العطايا والنعم ، وأعاد الى حريتى ، وأمر بأن تمهد لى سبل العودة الى بلادى .

« تنفسنا جميعا الصعداء ، وأسرعت الى الميناء فاستأجرت سفينة صغيرة وخمسة من البحارة ، وركبت مع الاسرة وانطلقت بنـــا السفينة ميممة شطر جزيرتنا المحبوبة ! غير ان كارثة جديدة حلت بنا ، لا تقل شدة من الكارثة السابقة ، فقد هاجم القراصنة المغاربة سفينتنا وهى فى عرض البحر ، وعلى مرمى النظر من ساحل كورسيكا ، فقتلوا رجالهـا ،

وأضرموا فيها النـار ، وحملونا نحن الى سفينتهم ، وعادوا بنـا الى بلادهم حيث عرضونا مرة ثانية للبيع فى سوق الرقيق !

« وكنا فى هذه المرة من نصيب أمير مغربى واسع الثراء والجاه .. لم يشأ أن يفرق بيننا فاشترى الاسرة كلها دفعة واحدة ، كما فعل وكيل



« الربس » او ربان السفينه
كما يراه الرسام وولفجانج في القرن
السابع عشر

الباى من قبل · وهكذا شاءت الاقدار التى أنقذتنا من الاسر والعبودية فى تونس ، أن تعيدنا اليهما فى المغرب ، قبل أن نتمتع بنسيم الحرية ، وبدون أن تكتحل عيوننا برؤية الوطن العزيز !

« ولكننى جعلت أفكر فى الخلاص منذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامنا أرض المغرب · وخطر لى فى الحال خاطر وضعته بلا ابطاء موضع التنفيذ فكتبت رسالة باللغة العربية الى سلطان المغرب مولاى محمد ، رويت له فيها ما حدث لى فى تونس ، وكيف اننى انقذت حياة الباى من كيد المتآمرين ، وطلبت أن ينظر الى والى أسرتى التى تصحبنى بعين

العطف والتقدير · فرق السلطان لحالنا ، وأبدى رغبته فى رؤيتنا ، فذهبنا اليه فى قصره ومعنا السيد المربى الذى اشترانا ، وبعد أن ثبت للسلطان أننى لم أكذب فيما ادعيت ، أمر بأن يطلق سراحنا ، وأن توضع تحت تصرفنا سفينة من سفنه ، تحملنا الى كورسيكا فى حراسة كافية تضمن سلامتنا ، وتمنع وقوعنا فى أسر القراصنة مرة ثالثة !

«غير أن شيئا واحدا نغص علينا ما شعرنا به من فرح واطمئنان : فقد استرعت ابنتى مرتا ، وهى اليوم فى الثالثة عشرة من العمر ، أنظار السلطان بجمالها الباهر وشبابها الغض ، فرغب فى الاحتفاظ بها فى قصره بين نسائه وجواريه ، قائلا لى انه سيجعل منها سيدة البلاد الاولى ويرفعها الى أوج العلى والسعادة والهناء» ·

سكت جاك ماريا لحظة ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، ثم استطرد قائلا :

« ولهذا أيها المواطنون والاصدقاء ، فانكم ترونني عائدا الآن اليكم مع زوجتى وولدى ، محملين بالتحف والاموال والارزاق ، لكنكم لا ترون معنا تلك الابنة الحبيبة ، التى اضطررنا الى التخلى عنها هناك ، والتى أرجو أن لاتطول غيبتها علينا » ·

لم تطق الأسرة صبرا على هذا الفراق · وما مرت شهور على عودة جاك ماريا الى بلدته كوربارا ، حتى راح يعد العدة للقيام بمغامرة خطرة لانقاذ ابنته وانتزاعها من قصر السلطان بمدينة فاس · فجمع حوله فريقا من الجبليين الاشداء وجهز سفينة أقلعت به وبرفاقه الى المغرب ، فاجتازت البحر بدون أن يلحق بها سوء ، وبلغت بالسلامة ساحل المغرب ، ولكن الحظ العاثر أراد للكورسيكيين أن يصلوا الى «رباط الفتح» فى الوقت الذى كان فيه وباء الطاعون متفشيا فى البـــلاد ، فأصيب جاك ماريا بالمرضى فى أول يونيو سنة ١٧٧٠ ميلادية الموافقة لسنة ١١٨٤ هجرية وهرول رفاقه مسرعين الى سفينتهم وعادوا بها الى جزيرتهم خائبين ·

ومرت الاعوام بدون أن يتسرب الى كورسيكا لا كثير ولا قليل من أخبار الفتاة المقيمة فى قصر السلطان مولاى محمد بفاس · وعبثا حاول أخواها وامها الاتصال بها بوساطة القناصل والتجار واصحاب السفن فقطعت الأسرة كل أمل فى لقاء الابنة التى كان سكان القرية يسمونها «المغربية» فى حين أن المغاربة كانوا يسمونها «الافرنجية» ·

ولكن مرتا لم نياس من الاتصال بأهلها وعشيرتها • ففى سـنة ١٧٨٦ ميلادية - الموافقة لسنة ١٢٠٠ هجرية رست فى ميناء كالفى على مقربة من بلدة كوربارا ، قافلة من السفن المغربية نزل منها جماعـة من الامراء العرب ، يتبعهم حراس مسلحون ، وعبيـــد يحملون عشرات من الصناديق والاكياس : تلك هى البعثة التى أوفدتها مرتا فرانشسكينى «سلطانة المغرب» الى بلدتها ، بأمر من زوجها السلطان مولاى محمد بن عبد الله الحسنى !

وعلم سكان جزيرة كورسيكا بما كانوا يجهلون ، وقص عليهم رجال البعثة قصة الفتاة التى ملكت قلب مولاهم فأجلسها على العرش ، وجعلها موضع ثقته ، واتخذها زوجة وصديقة ومستشارة مسموعة الكلمة نافذة الرأى ! •

ما الذى حدث لمرتا بعد فراقها عن أبيها وأمها وأخويها فى مدينة فاس ، وهى بعد فى الثالثة عشرة من العمر ؟

لقيت الفتاة حظوة فى عينى السلطان ، وما مضت ثلاثة أعوام على دخولها القصر حتى كان مولاى محمد قد بر بوعده لأبويها وأخويهـا ، فجعل منها سيدة النساء فى حرمه ، واتخذها زوجة له ، وأحلهـا فى نفسه المنزلة الاولى •

كان مولاى محمد قد خلف اباه مولاى عبد الله على عرش المغرب فى سنة ١٧٥٧ ميلادية ، الموافقة لسنة ١١٧٠ هجرية فعرفت البلاد فى أيامه عهد رخاء وطمأنينة وسعة نفوذ • فقد عقد ذلك العـاهل العظيم معاهدات صداقة وتعاون مع بعض الدول الاوربية ، وجلب الى عاصـمة ملكه لفيفا من الخبراء الاوربيين الذين هجروا بلادهم واتخـذوا المغرب موطنا والاسلام دينا ، فاستعان بهم لتحقيق طائفة من الاصـلاحات فى فى جميع مرافق الحياة ، وكان يتبادل الرسائل والوفود والهبـات مع الملوك والأباطرة والامراء فى الشرق والغرب ، وكانت زوجته السلطانة مرتا تتولى كتابة الرســائل اليهم ، والرد على خطاباتهم ، وتفضى الى زوجها بآرائها الصائبة فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة ، فازداد اعجابه بها ، وتضاعف حبه لها •

وظلت مرتا تحدث السلطان عن أهلها وبلدتها ، فأراد فى النها - أن يستجيب لرغباتهـــا ، وأمر بأن توفد الى كوسيكا بعثة تتولى الب

عن أسرة فرانتسسكيني في كوربارا ، ونأتي بها الى المغرب اذا شاءت ، بعد استئذان لويس السادس عشر ملك فرنسا في ذلك الوقت ٠

تلك هي البعثة التي وصلت في قافلة من السفن المغربية الى ثغر كالفي ، واطلعت سكان الجزيرة على حقيقة ما حدث للطفلة التي افتقدوها منذ أعوام ٠

وكتبت مرتا الى ملك فرنسا تنبئه بسفر البعثة الى كورسيكا ، فاهتم لويس السادس عشر بالامر ، وبعد بضعة أسابيع من وصول الرسل المغاربة الى كوربارا ، غادروا ميناء كالفي في سفنهم ، وقد انضمت اليها سفن فرنسية أخرى ، تحمل أسرة فرانشسكيني ورهطا من سكان الجزيرة ، الى بلاد المغرب ٠

وأمر مولاى محمد بأن تفتح أبواب قصره للوافدين من موطن زوجته المحبوبة ، فاصطف «الحرس الاسود» في طريق القصر ، وحيا الضيوف بقرع الطبول والنفخ بالابواق ، واستقبل السلطان في أفخم ردهات القصر أم زوجته واخويها ، وكان اللقاء مؤثرا ، فألقت مرتا بنفسها بين ذراعي أمها التي لم تعرفها لأول وهلة ، واستأذنت زوجها في أن تقبل الأخوين٠ اللذين افترقت عنهما وهما في مقتبل العمر ، وحلت الأسرة في جناح من القصر ، وقد غمرها الفرح واكتنفتها السعادة !

وكانت السلطانة الفرنسية قد رزقت بنتا سمتها أيضا « مرتا » وعللت النفس بأن ترزق ابنا قد يخلف أباه على العرش ٠ لكن هذا الامل لم يتحقق ، فحصر السلطان وراثة العرش في ابنه الأكبر يزيد ، الذى رزقه من امرأة أرلندية كان ابوها قد اعتنق الاسلام واستوطن المغرب

وكان يزيد يكره زوجة أبيه الكورسيكية ويكيد لها في الخفاء ، بل كان يكيد لابيه ويتآمر عليه ويسعى لانتزاع الملك منه قبل موته ، وبلغ الجحود بهذا الابن العاق ان رفع راية العصيان وجمع انصاره في الجبال ، فقرر مولاى محمد ان يعاقبه على غروره ، ويقضى على ثورته في مهدها ، فحشد جيشا من حرسه الخاص وتأهب للزحف بنفسه على مقر الابن الثائر ولكن يدا خفية دست له السم في الطعام ، فشعر السلطان بأن ساعته قد دنت ، ودعا زوجته المختارة اليه ، وهمس في أذنها قائلا :

ـ مرتا ٠٠ لقد أحببتك واخلصت لك بقدر ما أحببتني وأخلصت لى ولك الآن أن تعودى الى أهلك اذا شئت ، أو أن تبقى في هذا البلد

المضياف معززة مكرمة .. ولكن احذرى يزيدا فقد يدس لك السم كما دسه لى . ولا تثقى الابولدى سليمان .. الذى أرجو أن ينتقم لى من أخيه وان يؤول اليه الملك من بعدى ، لكى يحافظ على هذا الوطن قويا منيعا .

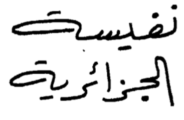
وأسلم مولاى محمد بن عبد الله الروح بين أحضان مرتا الفرنسية سلطانه المغرب ، فى الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٧٩٠ ، الموافقة لسنة ١٢٠٤ للهجرة .

تحققت أمنية السلطان الراحل بعد موته ، فلم ينعم مولاى يزيد بالملك طويلا ، بل مات فى ظروف غامضة ، واقتتل اخوته بضعة شهور ، وانتهى ذلك الصراع بارتقاء مولاى سليمان بن محمد عرش آبائه واجداده وظل جالسا عليه حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٢٢ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٣٧ هجرية .

وكان هذا السلطان بارا بذكرى أبيه مولاى محمد ، وقد نسج على منواله فى السياسة والادارة ، وأحاط زوجة أبيه الفرنسية بمظاهر الاكرام والاجلال ، وكانت المسكينة قد فقدت ابنتها الوحيدة ، فوجدت بعض العزاء فى معاملة السلطان الجديد لها ، واجتماع أعضاء أسرتها حولها بعد طول الفراق .

ومن أعمال هذا السلطان الباهرة ، قضاؤه على شرور القرصنة ، ودعوته ملوك أوربا الى التعاون معه فى تأمين السلامة للمسافرين فى البحار ، وهو الذى أرسل الجنرال نابليون بونابرت ، وكتب اليه يقول أن سلطانة المغرب فرنسية مثله من جزيرة كورسيكا ، وكان يعنى زوجة أبيه مرتا فرانشسكينى . وفى سنة ١٧٩٩ ، أوفد مولاى سليمان شقيق السلطانة السابقة ، فنشنتى فرانشسكينى فى بعثة الى بونابرت . وفى أثناء وجود البعثة فى باريس ، تفشى وباء الطاعون مرة أخرى فى المغرب فأصيبت مرتا بالمرض القاتل كما أصيب بها أبوها من قبل ، وماتت فى ١٥ يونيو سنة ١٧٩٩ الموافقة لسنة ١٢١٣ للهجرة .

ماتت مرتا فرانشسكينى سلطانة المغرب فى الاربعين من العمر ، بعد أن جلست على العرش وقاسمت زوجها مولاى محمد ، حلو الحياة ومرها نحو عشرين سنة . ولم يسعدها الحظ بأن ترى وطنها كورسيكا منذ أن خطفت منه طفلة صغيرة ولم تترك ابناء ولكنها تركت ذكرى طيبة عطرة ، وخدمت الوطن الذى تبناها بأمانة واخلاص ووفاء .



ثورات متواصلة ، معارك رهيبة تضحيات متـــوالية، مقـاومة ضارية : هذا هو تاريخ الجزائر العربية منذ عام ١٨٣٠ ، وكان الختام أن أطلت شمس الحرية على البلد الثائر والشعب الأبى فى سنة ١٩٦٢ .

طاف قائد الحصن على جنود الحاميـــة فى المراكز التى حددها لهم بدقة ، وتلقى منهـم جمـاعة بعـد جماعة وفردا بعـد فرد ، القسم الذى ارتبطوا به تجاه الوطن وتجاه الله وتجاه أنفسهم ، بأن يدافعوا عن حصنهم دفاع المستميتين ، حتى اذا لم يبق منهم على قيد الحياة غير العدد الكافى من الرجال لحمل الجرحى والانسحاب بهم الى مواقع أخرى ، تســـللوا الى الخارج تاركين للعدو جدرانا متهدمة واطلالا متراكمة !

وواصل العدو هجومه ، وواصلت الحامية دفاعها .

من هم المدافعون ؟ ومن هم المعتدون .

كانت الدولة الفرنسية تبيت الشر للجزائر منذ أعوام عدة ، فقد أمد الجزائريون الشعب الفرنسى بالمال والمؤن والمساعدات المختلفة ، فى أيام محنته ، بينما كانت الدول الاوربية تضرب عليه الحصار وتحاول تجويعه ، فبلغت ديون فرنسا للجزائر مايزيد على ستة مليارات من الفرنكات !

حدث ذلك فى عهد حاكم الجزائر الداى على بن احمد ، وفى عهـــد خلفه الداى حسين بن حسن .

ولما استقرت الامور فى فرنسا، بعد الاضطراب والافلاس ، عمد الداى الى المطالبة بدينه ، وتلكأت الحكومة الفرنسية فى الدفع ، بل جعلت تفكر فى التخلص من التزاماتها والتهرب من تسديد ديونها ، حتى ولو اضطرت الى استخدام القوة .

وأتيحت لها الفرصة الملائمة : فقد لبت الجزائر نداء الدولة العثمانية فى حربها مع روسيا وانجلترا وفرنسا ، ابان ثورة اليونان فى سنة ١٨٢٧ وكان الاسطول الجزائرى من بين الاساطيل التى تحطمت فى معركة نفارين البحرية .

وفى الوقت نفسه ، عمد رسل فرنسا الى اصطناع خلاف مع الداى حسين بن حسن ، فتحدوه بوقاحة ، وغضب الداى فلوح بمروحته فى وجه القنصل الفرنسى ، ولامست المروحة وجه الرجل ، فعدت حـكومة فرنسا

ذلك العمل اهانة موجهة اليها فى شخص ممثلها ، وقررت أن تهاجم الجزائر لمحو الاهانة ٠

وعلى هذا ، فانها لن تكتفى بالتهريب من دفع الدين المطلوب منها ، بل قررت أن تحتل بجيشها أرض الجزائر ، وتحولها الى مستعمرة تستأثر بخيراتها ، وتستولى على الاموال الطائلة التى قال لها جواسيسها انها مكدسة فى خزائن الداى بمدينة الجزائر ، وهى كافية لسد نفقات الحملة العسكرية مهما تبلغ ارقامها ٠

خطة استعمارية رسمت بامعان تام ، على أساس أن تصيب ثلاثة أهداف بحجر واحد : والتخلص من الدين وملء خزينة فرنسا بأموال الجزائر ، والاستيلاء على بلد مترامى الاطراف كثير الموارد ٠

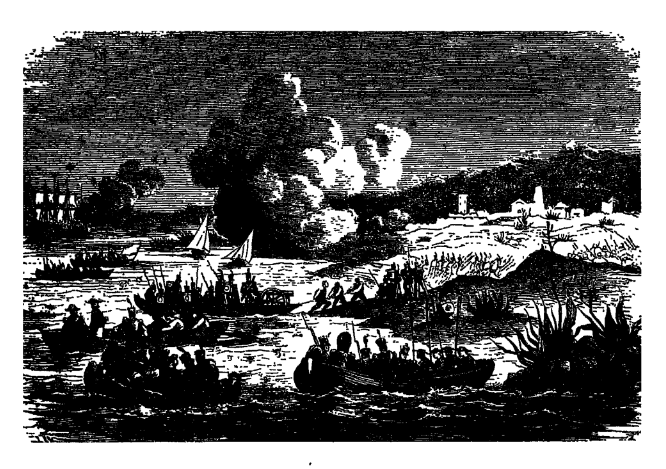
وفى شهر يونيو من سنة ١٨٣٠ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٤٥ هجرية أبحر الاسطول الفرنسى سربا بعد سرب فى طريق العدوان ٠ وقد خلا البحر المتوسط من اسطول جزائرى يرد ذلك الغدر الذى لم يكن أحد يتوقعه ٠ وفى الرابع عشر من ذلك الشهر ، نزلت طلائع الجيش الفرنسى فى ميناء سيدى فرج ٠ واتخذه القائد العام الجنرال بورمون ، وزميله الاميرال دوبيرى ، قاعدة للعمليات الحربية ، التى جهزت لها فرنسا ثلاثين ألفا من جنودها ٠

وصمد الجيش الجزائرى بالرغم من المفاجأة ، وهرع السكان أيضا الى صد الغزاة بما توافر لهم من سلاح وعتاد ، ولحقت النساء برجالهن يحملن لهم الذخيرة ويتولين اعداد الطعام ويضاعفن حماستهم بالزغاريد والاهازيج ٠

توالت المعارك خلال ثلاثة أسابيع كاملة ، تكبد فيها المعتدون خسائر فادحة ، ولم يتمكنوا من السيطرة على مدينة الجزائر ، عاصمة البلاد ، الا فى اليوم الخامس من شهر يوليو ٠

وصلوا الى مداخل « القصبة » مركز الدفاع الرئيسى ، ولكن حامية الحصن الكبير المشرف على المدينة ظلت تواصل القتال من وراء الاسوار العالية والابراج المنيعة ٠

لم يكن عدد المدافعين عن الحصن يزيد على ألفين من المقاتلين ، بينهم أيضا نساء يقمن بخدمتهم ، ويواسين جرحاهم ، ويوارين قتلاهم فى تراب الدهاليز ٠



بدء العدوان : نزول الحملة الفرنسية فى سيدى فرج قرب مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠

وحاصر الحصن العاصى عشرة آلاف من جنود بورمون !

فى ذلك الظرف العصيب ، طاف قائد الحامية ، «الخزنجى» أى وزير المالية الجزائرية ، على جنوده فى مراكزهم ، فاقسموا بين يديه على مواصلة الدفاع بقدر ما تسمح به طاقاتهم البشرية ٠

وامتد الحصار أسبوعا كاملا ٠

كلما فتحت مدفعية العدو ثغرة فى الاسوار ، كان جنود الحامية الباسلة يسارعون الى سدها بالحجارة ، وأحيانا بجثث القتلى من رفاقهم ! ٠

أسبوع كانت ايامه مليئة بالتضحيات المتواصلة ، شهدت كل ساعة من ساعاته ألوانا رائعة من البطولات الحقة : وتساقط الشهداء واحدا بعد واحد ، حتى اذا ما اقبلت نهاية الاسبوع ، لم يكن قد بقى من الحامية غير

بضع عشرات من الرجال ، أنهكهم التعب ، ونال منهم الحرمان كل منال ، ومن حولهم خرائب واطلال ·

كان الجنود جميعـا قد بروا بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم ·· فأصدر القائد امره الى البقية من ابطاله ، بأن يحملوا الجرحى وينسحبوا من الحصن سالكين المنافذ التى يجهلها العدو ·

فى ركن من أركان الحصن ، وقف « بوعمران » وزوجته « نفيسة » يتبادلان الرأى ، وسط الضجيج المتواصل وهزيم المدافع الذى لاينقطع ·

للرجل والمرأة ثلاثة أبناء فى ريعان الشباب · وقد التحقت الاسرة كلها بحامية الحصن الكبير · فاستشهد واحد من الابناء الثلاثة فى أثنـاء الحصار ، وخرج الاثنان الباقيـان مع من خرج من الجنود الذين نجـوا من الموت ·

والاب والام يعرفان جيدا ، ماسوف يفعله الاثنان ، فلا شك فى انهما سيثأران لأخيهما القتيل ، ويستأنفان الجهـاد فى ميادين أخرى ، مع من يواصلون القتال فى المدن والقرى والصحارى والجبال ·

وقال بو عمران :

ـ أما نحن يانفيسة ، فان فى وسعنا أن نأخذ بثأرنا من الآن ، وبدون أن نغادر هذا الحصن ، وقد نموت فى سبيل الثأر ، ولكن بعد أن نرضى الله والوطن وفقيدنا العزيز ·

وقالت المرأة :

ـ رأيك دائما هو الرأى الصائب يابو عمران · ولن أخالفك اليوم ، كما اننى لم أخالفك فى أى يوم مضى ، فماذا ترى أن نفعل ؟

كان الجنود ينسابون الى الخارج حاملين الجرحى ، ويتضاءل عـدد الباقين منهم داخل الاسوار فى انتظار دورهم للاختفاء فى الدهاليز ·

واستطرد بو عمران يقول :

ـ لقد وارينا شهيدنا التراب · وودعنا أخويه على أن نلتقى بعد ان يتم الانسحاب ·· ولكننا لن نلتقى ·

فسألت الزوجة :

ـ ماذا تعنى !

وبلهجة الآمر الذى اتخذ قرارا وصمم على تنفيذه ، قال بو عمران :

ـ سوف ننتظر دخول الاعداء الى الحصن ، وانتشارهم فى أرجائه بعد أن يكون رفاقنا قد ابتعدوا وأصبحوا فى أمان ، ثم ٠٠٠

ـ ثم ماذا ٠٠ سيقتلنا الفرنسيون ٠

ـ لا ٠٠ بل سنقتل منهم عشرات ومئات ، قبل أن يتمكنوا من تثبيت أقدامهم فى الحصن ، وقبل أن يصلوا الى مستودع البارود ٠٠ ينبغى ألا يستولى الفرنسيون يانفيسة الا على أكوام من الخرائب ٠

ـ فهمت يابو عمران ٠

ـ اذن ٠٠ فلا شك فى أنك توافقيننى على ما انتويت الاقدام عليه ٠

ـ نعم ٠

ـ هيا بنا ٠٠ وكونى رابطة الجأش كعهدى بك فى كل وقت ، يا نفيسة ٠ ٠ فقد لانخرج من هنا ٠٠ وندفن تحت انقاض الحصن ، مع الاعداء ٠٠

واحتضن الرجل زوجته ٠٠ ثم أخذها من يدها ، واختفى معها فى فجوة بجوار الركن الذى كانا واقفين فيه ٠

بينما الجنود الفرنسيون يتدفقون الى صحن القلعة ، فى جلبة المنتصرين ، وترتفع أصواتهم بأناشيد الظفر ، دوى انفجار هائل زلزل الارض تحت أقدامهم ، وهز ما تبقى قائما من الجدران الضخمة ، فتطاير التراب فى الجو ، وارتفعت فى الفضاء سحب سوداء ، وتساقطت الحجارة فى كل صوب ، وحلت صيحات الذعر والهلع محل اناشيد النصر ، وهوت الاسوار بأبراجها ، وتحول الحصن الكبير ، الى قبر كبير ٠

أشعلت نفيسة وزوجها بو عمران النار فى البارود ، فكان الانفجار الذى حول المكان الى جحيم متأجج ٠

وهلك من هلك من الجنود المهاجمين ٠ ودخل رفاقهم فى أثرهم ليحتلوا الاطلال ٠

وقتلت نفيسة وزوجها ، وراحا شهيدى الواجب ، ولحقا بابنهما الذى سبقهما الى عالم الخلد ٠

أما الابن الثاني والابن الثالث ، فقــد ابتعدا سليمين ، ليلتحقــا بالمجاهدين ، فى ظاهر المدينة ٠

واحتل الفرنسيون عاصمة الجزائر ، ونهبوا القصــبة ، ووضعوا أيديهم على خزائن الحكومة الجزائرية المملوءة ذهبا وفضة وحجارة كريمه فنقلوا ذلك الكنز الهائل الى بلادهم ، حيث تلقاه ملكهم شارل العاشر ورجال حكومته بمظاهر الفرح والابتهاج ٠

وبلغت قيمة ما دخل خزينتهم بعملية السطو تلك ، ثمانيــة عشر مليارا من الفرنكات ٠ ولما انتهى الغزو ، لم نزد نفقات الحملة التى قامت به على ثمانية واربعين مليونا ونصف مليون من الفرنكات فقط !

ولما أضافوا الى ثمرة سطوهم قيمة الدين الذى تخلصوا منه ، وهو ستة مليارات من الفرنكات ، وجدوا انهم قد استرجعوا نفقات الحملة ، وربحوا نحو أربعة وعشرين مليارا ، أمر الملك بان يستعان بها لسد العجز فى الميزانية ، وانقاذ الدولة من الافلاس ٠

وظنوا أن الامر قد استتب لهم فى الجزائر ، بعد ان دخلوا عاصمتها ولكن ظنهم خاب وآمالهم تبددت ٠

فقد استأنف الشعب الجزائرى القتال ، وتنادى السكان فى المدن والقرى الى حمل السلاح ٠ وحشدت القبائل جموعها ، واستمرت الحرب قائمة على قدم وساق ٠

ووحد الامير عبد القادر بن محيى الدين صفوف مواطنيه وقادهم فى جهادهم الرائع٠ وكان ولدا بو عمران ونفيسة بين المجاهدين الذين حاربوا تحت لواء البطل العظيم ٠

ودارت الايام دورتها ، وتوالت الاعوام ٠٠ فقتل واحد من الاخوين في ثورة نشبت ضد الفرنسيين فى سنة ١٨٥٧ ، بعد رحيل عبد القادر عن وطنه ٠٠

وفى سنة ١٨٦٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٩ كان الامير الجزائرى يقيم فى دمشق ، التى اتخذها مقرا له فى منفاه ، وهنــاك لحق به قاسم بو عمران ، أخ الشهيدين اللذين سـقطا على أرض الجزائر ، والبــاقى على قيد الحياة ٠ من اسرة بطــل القصبة ، الذى نسف الحصن على رءوس الفرنسيين فى سنة ١٨٣٠ ، ودفن نفسه مع زوجته تحت انقاضه ٠

وقضى قاسم بقية حياته فى دمشق ، مع «المغاربة» الذين التفوا حول

أميرهم وقائدهم السابق ، وأنشئوا فى المدينة العريقة حيا عرف باسمهم وتناسلوا وتكاثروا ..

أما وطنهم الجزائر ، فقد ثار مرة بعد مرة ، وسنة بعد سنة ، على الاغراب المغتصبين . وكان الثائرون ، كلما أخمدت لهم ثورة ، عادوا ، أو عاد ابناؤهم ، أو عاد أحفادهم الى اشعال غيرها ، والثقة تملأ نفوسهم بأن يوم النصر لابد آت لاريب فيه ، وان الحرية بنت الجهاد ، وان الحق لايضيع مادام صاحبه يطالب به ، والسيف بيده .

توكرت
غادة
الوادى

اسمها « توكرت » ولكن
المعجبين بها كانوا يسمونها
« البهجة » ويصفونها بأنها
« غادة وادى الريغ » ٠

الى الجنوب من مدينة قسطنطينية بالجزائر ، وفى جوف الصحراء يمتد وادى يعرف بوادى الريغ على مسافة كبيرة ، تتخللها سلسلة من الواحات الخضراء والجداول والآبار ، وتكتنفها غابات من النخيل يصعب على النظر أن يدرك مداها ، وعلى طول الوادى، تقبع المدن والقرى والمزارع ، فى ظلال الاشجار وحماية الهضاب ٠

وأهم الواحات وأكبرها ، فى وادى الريغ ، مدينة « توكرت » وملحقاتها ٠ حيث يبلغ عدد السكان نحو خمسة وثمانين ألف نسمة ، معظمهم من البربر المستعمرين ، وهم يفاخرون بمدينتهم توكرت ، وقصبتها أى قلعتها ، ومتاجرها الغاصة بمختلف السلع ، وعشرات المآذن التى تخترق فضاءها ، وينطلق من شرفاتها ، خمس مرات فى اليوم ، النداء الشجى : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح ! ٠ »

كان اسمها « النزلة » لا « توكرت » وللاسم الذى تعرف به اليوم قصة مثيرة ، يرويها لك المطلعون من السكان ، لو جالستهم فى أمسياتهم حول المواقد أو المناسف ٠ ويخيل اليك ، وأنت تصغى الى روايتهم ، ان فيها مزيجا من الحقيقة والخيال ، ومن التاريخ والاسطورة ٠

النزلة بلدة قديمة ، لا يمكن تحديد الزمن الذى انشئت فيه ، ولا معرفة القوم الذين انشئوها فى وادى الريغ ٠ وكانت قد بلغت درجة من الازدهار عظيمة ، يوم دخلها الاسلام ابان انتشاره فى أقاليم أفريقية الشمالية ، فاعتنق سكانها وجيرانهم فى قرى الوادى وواحاته الدين الجديد ، فوجا بعد فوج ، وامتزجت لغتهم البربرية الاصيلة بكلمات عربية تزايدت مع الايام ٠ وفى أوائل القرن الهجرى التاسع ــ الموافق للقرن الخامس عشر للميلاد ــ كانت البلدة تختار حكامها من رجال الدين أنفسهم ، فيتولون فيها السلطتين الروحية والزمنية فى آن واحد ٠

فى ذلك الوقت ، كانت تعيش فى النزلة امرأة شابة على جانب كبير من الجمال الاخاذ توقع الشبان والكهول ــ وحتى الشيوخ ــ فى

شراك حسنها ، فيتوافدون عليها من جوانب الوادى ، ويغدقون عليهـا الاموال والهدايا ، مقابل ما توفره لهم من أسباب اللهو والتسلية .

اسمها « توكرت » ولكن المعجبين بها سموهـا « البهجة » وكانوا يصفونها بأنها « غادة وادى الريغ . »

شاع الفساد بسببها . فقرر الشيوخ المسئولون عن صيانة الأمن وسمعة البلدة ، أن يبعدوا الغانية عن النزلة تخلصا من الفتنة ، فأنذروها بالرحيل ، ولم تمانع توكرت فى تنفيذ الانذار ، ولكنها انتقلت الى ظاهر البلدة ، حيث نصبت خيمة اسـتقرت فيها ، فجاءت النتيجة على غير ما كان الشيوخ يأملون !

أصبحت الخيمة المنصوبة خارج البلدة ملتقى العشاق العديدين ، ومقصد طلاب اللهو من سكان النزلة . وبدءوا الواحد بعد الآخر ينصبون خيامهم حولها ، ويهجرون منازلهم للاقامة فى ذلك المكان الذى اتخذته الغانية الساحرة مقرا لها ، ومرتعا لعشاقها .

وفى ذات يوم ، مر ببلدة النزلة رجل معروف بالصلاح والتقوى ، يقضى أيامه متنقلا بين واحات الصحراء وقراها ومضاربها ، ويعتمد فى كسب رزقه على كرم الضيافة وعطاء المحسنين .

الناس يعرفونه باسم « بو جملين » لأنه يركب جملا ويقود آخر محملا بزاده ومتاعه .

لم يستضفه أحد من سـكان البلدة فى ذلك اليوم ، ولم يفتح فى وجهه باب ، ولم تمتد اليه يد باحسان . فواصل الرجل السير ولما ابتعد عن المنازل كان الليل قد أقبل ، فطرقت أذنيه أصـوات ترتفع بالغناء والصياح ، فمشى فى اتجاه مصدرها ، واذا به يصل الى الخيمة التى كانت « توكرت » فى تلك الليلة تقيم فيها حفلة صاخبة ، ظنها الرجل فى بادىء الأمر عرسا تزف فيه احدى حسان البلدة الى وزجها !

دعى الى الدخول فدخل . وهبت الغانية ترحب بالغريب وأخذته من يده وأجلسـته فى مكان الصدارة . فأكل وشرب وقضى الليـل فى ضيافة «توكرت» وأصحابها ، وفى صباح اليوم التالى ، رفع بوجملين يديه الى السماء داعيا للمرأة بطول العمر ، وقال وهو يودعهـا : « لقد فهمت حقيقة امرك مما رأيته وسمعته فى هذا المكان . فاطلب من الله أن يهديك سواء السبيل ، ويحول خيمتك هذه الى دار عامرة ، والخيام التى تحيط بها الى منازل غاصة بالاسر السعيدة ، مكافأة لك على حسن ضيافتك ..



الامير عبدالقادر الجزائرى
في شبابه كما رسمه ضابط
فرنسي وقع في الاسر

وان يخلى من سكانها تلك البيوت التى تصد المسافرين وتغلق أبوابها فى وجوه الغرباء .. وأن يجعلك تموتين ميتة الصالحين ! »

وابتعد الرجل التقى الورع بجمليه ، واختفى فى طيات الصحراء !

واستجاب الله لدعائه !

فلم تمر أشهر على ذلك الحادث ، حتى وصل الى النزلة حاج مغربى فى طريقه للمرة الثـانية الى أرض الحجاز المقـدسة ، فسمع بقصة المرأة الضالة وزيارة بوجملين ودعائه ، وعلم أن توكرت بدأت تغـير سيرتها ، وتلتمس طريق الصلاح، وتبذل المال للفقراء بلا حساب ، وتدعو عشاقها الكثيرين الى تشييد المنازل محل الخيام ، والانصراف فيئا فشيئا عن حياة اللهو والعربدة !

وقال الحاج المغربى محمد بن يحيى : « لن أواصل السير الى الحجاز، بل سأبقى هنا ، لآخذ بيد الغانية فى سبيل توبتها ، واصلى الى الله لكى يهدى الضالين جميعا ، ويرعى بعين عنايته هذه البلدة الصغيرة الجميلة»!

وتمت بقية المعجزة على يد الحاج محمد بن يحيى المغربى !

تابت « توكرت البهجة » الى الله توبة كاملة ٠ وأصلح العشاق سيرتهم ٠ ووضعت الغانية التائبة أموالها وحليها ونقودها تحت تصرف الرجل الصالح الثانى ،بعد أن أصغت الى نصائح الرجل الصالح الاول ٠ فانفق محمد بن يحيى ثروة المرأة فى سبيل الخير ، وشيد بين المنازل مسجدا ، وبجوار المسجد مضيفة ، والى جانب المضيفة مدرسة ٠٠٠

وتحولت حياة اللهو فى البلدة الجديدة عن مجراها السابق ، وتغيرت معالمها ، وقرر عشاق «غادة الوادى» أن يطلقوا اسمها على البلدة التى انشئوها مكان خيامهم خارج نطاق النزلة ٠ ومنذ ذلك الوقت ، بدأت النزلة تخلو من سكانها ، وعرفت البلدة الجديدة باسم » توكرت » وأصبحت مع الزمن جديرة بأن توصف ، كما كانت توصف الغانية التى أعطتها اسمها ، بأنها : « غادة وادى الريغ ! »

أدى محمد بن يحيى رسالته على أحسن وجه ٠ ولما وافاه الاجل ، أسلم الروح قرير العين ، بعد أن رأى المرأة التى تولى اصلاح سيرتها ، وقد تخلصت من الرزائل والعيوب ، تتحلى بأحسن الصفات وأجمل الفضائل ٠

وشيد له سكان البلدة الجديدة ضريحا تعلوه قبة ، لا يزال الى الآن يعرف ، فى توكرت بوادى الريغ ، باسم مقام « المرابط سيدى محمد ابن يحيى » واليه يحج طلاب البركة من جوانب الصحراء ٠

ولحقت توكرت بالرجل الذى أخذ بيدها الى طريق الهداية ــ بعد وفاته بقليل ــ تاركة خلفها ذكرى معطرة مكرمة ، وبلدة تحمل اسمها ، قدر لها أن تصبح، فيما بعد مدينة كبيرة، وأن تتمتع بالازدهار والرخاء٠٠

ومرت أعوام ٠٠٠ ثم تلتها أعوام ٠٠٠

ونزل بوادى الريغ قحط شديد ٠ وعجز ولاة الامر فى توكرت عن ابعاد شبح الفاقة والجوع عن مدينتهم ، وعن غيرها من واحات الوادى ، وظنوا ان نهايتهم قد اقبلت ، وراحوا يتضرعون الى الله لينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء ٠٠٠

وذكروا مرور بوجملين فى بلدتهم ، وتوبة الغانية التى اهتدت واهتدى معها الضالون جميعا ، وبقاء سيدى محمد بن يحيى بين ظهرانيهم ودفنه فى توكرت ٠٠٠

وساق الله اليهم ، مرة أخرى ، من يأخذ بناصرهم ويعيد الى أجسامهم الصحة والى نفوسهم الطمأنينة ٠٠

وكان المنقذ فى هذه المرة هو « سليمان المرينى » وهو أيضـــا من ابناء المغرب ٠٠٠ كان عائدا من الحجاز فى قافلة لا نهاية لها ، تحمل الاموال والارزاق والسلع العديدة ، وبحرسها عشرات من الخدم والعبيد ٠

وصل المرينى الى مدينة توكرت ، فهاله ما شاهده فيها من بؤس ، وما يعانيه سكانها من حرمان ، فقرر ان يبقى فيها ، وان يساعدها على النهوض من كبوتها ٠

ولكنه أراد ، فى الوقت نفسه ، ان يلقى على النـاس درســا ، بعد ما علمه من انهم اساءوا التصرف فى تدبير امورهم فى عهد الرخاء ، فلما قلب لهم الدهر ظهر المجن ، لم يستطيعوا دفع الكارثة عن انفسهم ، ويواجهوا العاصفة ويخرجوا منها ســالمين ٠

عرض على الســكان أمواله ، فى مقابل ما يتنــازلون عنه من حلى ومنقولات وممتلكات ٠ فباع الســكان ما يملكون ، ثم بلغوا نســاءهم واطفالهم ورهنوا عند الرجل حريتهم ! ٠

وشيد المرينى فى وسط المدينة مسجدا كبيرا ، ويوم أداء الصلاة فيه للمرة الاولى ، وقف المغربى خطيبــا فى القوم فقــال لهم : « ليكن ما حدث فى مدينتكم وواديكم درسا لكم وعبرة ٠ أما الآن ، فاننى اعتق العبيد واعيد الى الجميع حريتهم وكرامتهم ، وكل ما اخذته منكم بثمنه حلالا ٠ وتعالوا نعمل معا يدا واحدة لكى تسترجع هذه المدينة ســابق عزها وبهجتها ! » ٠

وارتفعت أصــوات الســكان بالهتاف والدعاء لســليمان المرينى ، الكريم النبيل ، وبمبايعته أميرا على توكرت وملحقاتها فى وادى الريغ ٠

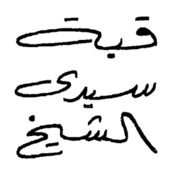
وكان الناس قد سموه من قبل « الجلابى » باعتبار أنه جلب لهم الخير بوصوله مع قافلته الكبيرة الى مدينتهم خلال محنتها ٠

قبل ســليمان المبــايعة ، فكان اول أمير من الاسرة المعروفة باسم « الجــلابة » أو « بنى جلاب » والتى حكمت وادى الريغ مدة طويلة ، وحمل بعض أمرائها لقب « ســلطان » وتحالفوا مع القبائل المجــاورة ، أو اشتبكوا معها فى حروب دامية ، لكى يحالفوها من جديد ويتكاتفوا معها لمقاومة الحملات العســكرية التى ارسلها حكام الســواحل التابعون للدولة العثمانية لاخضــاع سكان الصحراء أو سلب أموالهم ومنتجــات أرضهم ٠

مرت بسلطنة توكرت ووادى الريغ ، خلال ثلاثة قرون ، عهود نيرة واخرى مظلمة ، عهود عم فيها الرخاء واخرى خيم فيها البؤس ، وايام سلم وايام حرب ، ولكن عدد السكان ظل يزداد عاما بعد عام كما ظلت مســاحة الواحات تأخذ فى الاتساع تمشــيا مع ازدياد عدد السكان ٠ وامتدت غابات النخيل الى مســافات بعيدة وأوقفت طغيــان الرمال على المساكن ، وساعدت فى نمو المراعى وتوفير الغذاء لقطعان الماشية ٠٠

وفى القرن التــاسع عشر الميلادى ، اقدم الفرنســـيون على غزو الجزائر ، فارسل سكان وادى الريغ متطوعين منهم للاسهام فى الدفاع تحت راية أمير المجاهدين عبد القادر بن محيى الدين الجزائرى ٠ ودوخ مجاهدو توكرت الفرنسيين ٠٠٠

وفى سنة ١٨٥٤ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٠ هجرية ــ ســقط الوادى الخصيب فى قبضة الغزاة الأغراب ٠ ولكن مدينة توكرت ظلت شــوكة فى جنــوبهم ٠ واسهمت فى الثورات المتوالية التى كانت ارض الجزائر ميدان لها ٠٠٠



أقسمت أن تنتقم لوطنها ..
فضحت بقلبها على أرض المعركة
.. تحت قبة سيدى الشيخ

عشرون سنة قضاها القوم فى قتال الغزاة الفاتحين . لم يهدأ لهم بال ، لم يفتر لهم عزم ، لم يتسرب الوهن الى نفوسهم ، لم يخدعهم وعد ولم يرهبهم وعيد . خلال تلك السنوات العشرين التى سطا فيها الموت على شيوخهم ، وسقط فيها الكهول فى حومة الوغى والسلاح بأيديهم ، فحل محلهم الشبان ، لكى يحل الاحداث فيما بعد محل الشبان .

عشرون سنة قضاها الرجال المنتمون الى «قبائل أولاد سيدى الشيخ» على متون الخيل وظهور الجمال .

كانت ثورة « أولاد سيدى الشيخ » أطول ثورة نشبت على ارض الجزائر ، ضد الفرنسيين المعتدين ، منذ أن نزلت جيوشهم فى خليج سيدى فرج ، فى سنة ١٨٣٠ ، الى أن انتهى حكمهم فى عام ١٩٦٢ ، بعد ثورة استمرت سبعة أعوام ونصف عام .

فى أوائل القرن الحادى عشر للهجرة ، الموافق للقرن السابع عشر للميلاد توفى « سى عبد القادر الشيخ » التقى الورع ، ودفن فى بلدة الابيض ، على النهر المعروف بهذا الاسم فى جنوب وهران ، وشيدت على قبره قبة ، وانشئت حوله زاوية ، وعرف المكان منذ ذلك الوقت باسم « الابيض سيدى الشيخ » ، وأصبح مزارا يحج اليه الناس من جميع أنحاء الجزائر .. ومن تونس والمغرب .

هاجم الفرنسيون الجزائر . وتمكنوا من تثبيت أقدامهم على الساحل . وشرعوا فى الاتجاه الى الداخل . فتصدى لهم الامير عبد القادر بن محيى الدين فى سنة ١٨٣٢ ، وانطوت القبائل تحت لوائه ، فسار بها من معركة الى معركة ، وظل القتال مستمرا بقيادته خمسة عشر سنة كاملة .

واخذ أولاد سيدى الشيخ نصيبهم من الجهاد ، فالتحق منهم مئات بقوات الامير البطل . ولجأ عبد القادر الى ربوعهم أكثر من مرة ، ليعيد تنظيم جيشه ، ويعاود الكرة على الاعداء .

وتجمع أولاد سيدى الشيخ فى جنوب اقليم وهران ، واستقر زعماؤهم فى بلدة الابيض سيدى الشيخ حيث القبة والمزار .

وفى مساء يوم من أيام الشتاء سنة ١٢٧٦ هجرية — ١٨٦٠ للميلاد — داخل دار صغيرة فى ظاهر البلدة ، دار حديث مثير بين فتاة فى نهاية العقد الثانى من العمر ، وشابين أكبر منها بقليل .

قصت حليمة بنت سى ابراهيم على ابنى عمها ، حسن بن سى عمر وقاسم بن سى عمر ، ما حدث لها فى مدينة وهران ، مما حملها على الهرب والالتحاق ببنى قومها فى مقرهم المنعزل .

كان أبوها سى ابراهيم المعروف بالعنابى على خلاف مع أسرته واقام فى وهران حيث تزوج امراة فرنسية انجبت له ابنه عبد السلام وابنته حليمة . ولم يكن هذا النوع من الزواج قد تفشى بعد فى الجزائر . وفى الوقت الذى كان فيه الجفاء يستحكم بين سى ابراهيم وأفراد أسرته ، كان الفرنسيون يحاولون بشتى الوسائل أن يستميلوه اليهم ، ليستعينوا به فى تهدئة النفوس الثائرة عليهم . وكانوا يعتقدون أنه بوسعهم أن يؤثروا عليه بواسطة زوجته الفرنسية « كليمانتين يورجوا » .

ولكن الرجل الذى وهب قلبه لامراة فرنسية لم يبع نفسه لقومها ، ولم يسخر ضميره لخدمتهم . وقد رفضت الزوجة من جهتها أن تكون أداة طيعة فى أيدى الذين أرادوا أن يستغلوا زواجها ، بأن تدفع بالرجل الذى اصطفاها رفيقة حياته ، فى طريق الضلال .

وحدثت ذات يوم فتنة فى وهران — وكانت الفتن متتابعة متوالية — فاحتمى ثلاثة شبان كان الجنود يطاردونهم فى بيت ابراهيم العنابى ، واقتحم الجنود البيت ، فدافع صاحبه عن الشبان الذين استجاروا به ، ورفض أن يسلمهم لمطارديهم . وتضامنت معه أسرته ، عملا بالتقاليد المتوارثة عند العرب . ولم يشذ مسلك الزوجة الفرنسية عن مسلك زوجها وابنه وابنته . فدارت فى داخل البيت معركة استشهد فيها الشبان الثلاثة وأفراد الاسرة ، وتمكنت حليمة وحدها من النجاة ، ولكن بعد أن قتلت بيدها واحدا من الضابطين اللذين قادا حملة المطاردة ، كما قتل رفاقها ، قبل استشهادهم خمسة من الجنود .

والضابطان هما الاخوان جان وجاك فرديه . قتلت حليمة الاول . وحاول الثانى اللحاق بها ولكنها أفلتت منه ، وتوارت فى أزقة المدينة ،



قافلة في صحراء الجزائر في القرن الماضي

ثم ابتعدت متجهة الى القوم الذين تنتمى اليهم أسرتها ، أولاد سيدى الشيخ .

روت حليمة على مسامع ابنى عمها ، حسن وقاسم تفاصيل ذلك الحادث الدموى ، وكيف أنها علمت ، قبل الرحيل عن وهران ، ان جاك فرديه وجنوده حملوا جثث القتلى من رفاقهم ، ثم أضرموا النار فى بيت سى ابراهيم العنابى فأتت عليه ، وتحول الى قبر للشهداء العرب الذين التهم الأتون المتأجج جثثهم .

ــ والآن يا حسن ، والآن يا قاسم ، جئت اليكما يتيمة وحيدة ، فأنتما سندى الباقى فى هذا العالم . وقد اقسمت ، وانا فى طريقى اليكما ، ان اقف حياتى للاخذ بثأر الاعزاء الذين قتلهم اولئك الاغراب أمام عينى ، أبى الذى كان على خلاف معكما ومع قومنا ، وامى الفرنسية

التى كنتم جميعا تكرهونها لاعتقادكم أنهـا غررت بأبى ، وقد أثبتت أنها كانت وفية للأسرة التى أصبحت عضوا فيها ، واخى التوأم الذى قتل اثنين من المعتدين ، والمواطنون الثلاثة الذين استجاروا بنـا فحميناهم وافنيت أسرتنا فى سبيلهم فهل تقران ما صنعت ، وهل تقسـمان معى على الأخذ بالثأر ؟

فأجاب الشبان معا ، وبكلمة واحدة : « نعم ! » .

واحتضن كل منهما ابنة عمه حليمة ، ثم تشابكت أيدى الثلاثة ، وانبعثت من بين شفاههم عبارات القسم الذى قطعوه على أنفسم بالعمل معا ، وهو القسم الذى ارتبطت به حليمة بنت سى ابراهيم ، وهى فى طريقها الى قبة سيدى الشيخ ، فى بلدة الابيض .

وفى الوقت نفسه ، هناك ، فى وهران ، كان الضابط جاك فرديه ، اخو الضابط جان فرديه يقسم من ناحيته بألا يعود الى بلاده قبل ان يعثر على الفتاة التى قتلت اخاه بيدها ، فيقتلها بيده .

لم يطل انتظار حليمة فى البلدة التى آوت اليها بعد المحنـة التى حلت بها . فقد شاءت الاقدار أن تتيح للفتاة فرصة العمل فى سـبيل ثارها ، فى العام التالى لوصولها الى المزار الذى كان بنو قومها يحجون اليه ، ويعقدون حوله حلقاتهم ، ويعدون فيه العدة لثورتهم الكبرى .

فى جنوب وهران ، داهم أولاد سيدى الشيخ قافلة فرنسية محملة بالارزاق والاسلحة فى صيف سنة ١٨٦٢ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٧٨ للهجرة ، ففتكوا بها ، واستولوا على حمولتها ، وكان يقودهم فى تلك الغزوة حسن بن سى عمر ، وقاسم بن سى عمر ، ومعهما حليمة الفتاة الناقمة الغاضبة . وفى تلك المعركة الصغيرة ، قتلت حليمة الضـابط الفرنسى الذى كان يقود القافلة ، وقالت بعد ان عاد رفاقها الى قاعدتهم منتصرين :

ــ هذا واحد .. وبقى أن أقتلَ خمسة آخرين من الضـباط ، واحدا مقابل كل قتيل من الشهداء الستة الذين سـقطوا فى بيت ابى بوهران ... فان الجنـود الذين يقتلون بيدى أو بيدى غيرى من بنى قومى ، لا يحسب لهم حساب . والضباط وحدهم هم الذين يحسـب لهم حساب ...

وهمس ابن عمها حسن فى اذنها :

ـ يا حليمة .. لقـد كاشـفتك بحبى على أثر عودتك الى حمى القبيلة ، بعد مأساة وهران ، أفلا ترضين بأن تصبحى زوجة لى الآن ، وقد تم لك من الثأر الذى تسعين اليه جزء واحد من ستة أجزاء .

واجابت حليمة :

ـ أما أجبتك يا ابن عمى ، يوم كاشفتنى بحبك ، بأن همى الوحيد منصرف الآن الى تحقيق ذلك الثار الذى أنشده ، وان هذا أيضا يجب أن يكون همك أنت ... وان حبنـا ، اذا تكلل بالزواج بعد الثـأر للشهداء ، يكون مفعما بالسعادة والهناء ، أكثر منه لو تزوجنـا الآن ، وانصرفنا الى الاهتمام بحبنا ، وأهملنا الواجب الذى ارتبطنا به بالقسم المشترك !!

وجدت حليمة نفسها فى أزمة عاطفية جارفة . ان ابن عمها الاكبر حسن بن سى عمر ، يحبها حبا عنيفا . وهى تشعر ، بسليقة الانثى ، ان عاطفة خفية تختلج أيضا فى صدر ابن عمها الاصغر ، قاسم ابن سى عمر ، فيحاول كتمانها ، لانه لا يريد ان تقوم بينه وبين أخيـه منافسة على فتاة واحدة ، هى ابنة عم الاثنين معا . وأدركت حليمة ان الوسيلة الوحيدة لصرف الاخوين عن التناحر من أجلهـا ، هى ان تدفعهما فى طريق الجهاد ، من أجل الوطن الجزائرى من ناحية ، ومن أجل ثأرها المقدس ، من ناحية أخرى .

وفى سنة ١٨٦٤ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٨٠ للهجرة ، زحفت على قبائل سيدى الشيخ قوة فرنسية يقودها الـكولونيل بوبريتر . فهاجمها فرسان سيدى الشيخ بقيادة سى سليمان ، وأفنوها عن آخرها فى عين بوبكر ، وسقط قائدها نفسه قتيلا فى حـومة المعـركة ، وكان الاخوان حسن وقاسم ومعهما حليمة فى صفوف المهاجمين ، وتم لحليمة أن تحقق بعض ثأرها ، فقتلت بيدها واحدا من ضباط الحملة ، ولـكن ابن عمها الاكبر العاشق ، أصيب بجرح مميت لم يقدر له الشفاء منه ، ففاضت روحه فى ميدان القتال ، بعد هزيمة الفرنسيين ، وكانت كلماته الاخيرة لاخيه وابنة عمه :

ـ انك تعرف يا قاسم اننى أحب حليمة . فهى بعـد الآن أمانة بين يديك ، ولتكن زوجة لك ، بعد أن تصبح فى حل من قسمها !

وعاكست الاقدار العاشقين .

ظلا يشتركان فى المعارك ، ويقاتلان بشجاعة واقدام ، ولكن الحظ

خان الفتاة المجاهدة فتوقف عدد ضحاياها عند الاربعة الذين فتكت بهم .

وفى سنة ١٨٧١ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٨٧ للهجرة ، تضامن الثائرون من أولاد سيدى الشيخ مع الثائر المقرانى ، وفى معركة دارت رحاها فى غرب وهران ، قتلت حليمة ضابطها الخامس وبقى عليها مرحلة واحدة للبر بقسمها كاملا !

وعاد الحظ يعاكسها ...

أعوام أخرى انقضت ، والشاب والفتاة يعملان للهدف المشترك الذى يسعيان اليه ...

وأولاد سيدى الشيخ يواصلون صراعهم الرهيب ، ضد قوات متزايدة ، واسلحة فاتكة ، وعناد يتسم به العدو الذى كانت الامدادات تصل اليه تباعا من فرنسا .

صبر قاسم ، وصبرت حليمة ، عشر سنوات أخرى .

وفى سنة ١٨٨١ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٩٨ للهجرة ، وقعت معركة بين الثائرين وحملة فرنسية فاستشهد فيها قاسم بن سى عمر ، قبل ان يتحقق الحلم العاطفى الذى عاش له . وبقيت حليمة وحيدة فى الدنيا ، بعد ان فقدت ذويها جميعا .

وبعد أسابيع من المعركة ، زحفت قوة فرنسية كبيرة ، بقيادة الكولونيل نيجريه ، على بلدة الابيض .

وتجمع أولاد سيدى الشيخ للدفاع عن عرينهم . ونزلت حليمة الى الميدان مع المجاهدين من بنى قومها .

وفى حومة المعركة ، وجدت الفتاة نفسها وجها لوجه مع الغريم الذى بحثت عنه ، وبحث عنها ، خلال السنوات العشرين التى انقضت على مأساة وهران .

ذلك الغريم هو الضابط جاك فرديه أخو الضابط جان فرديه . اذن ، سيكون معى السادس . كان يقاتل والسيف بيده . وكانت حليمة تقاتل بخنجر أهداه اليها ابن عمها قاسم وهو يسلم الروح بين يديها ..

القت الفتاة الخنجر من يدها وصاحت صيحة مدوية ، ووثبت على الرجل الذى عرفته وعرفها ، فبادرها بضربة من سيفه ، وتعلقت الفتاة به ، وانشبت اظافرها فى عنقه ، ودار بين الاثنين صراع رهيب ،

وسط الدخان المتصاعد من الحرائق . فقد أمر الكولونيل نيجريه بأن تضرم النار فى زاوية سيدى الشيخ وقبتها والدور المحيطة بها ، ظنا منه انه يقتل روح المقاومة فى نفوس القوم ، بتدمير قاعدتهم ، وتخريب المزار الذى يرقد فى ترابه جدهم الاعلى .

وهمدت النيران . وابتعد المعتدون عن ذلك المكان المقدس الذى دنسوه وأحرقوه ، حاملين معهم القتلى والجرحى من رجالهم .

وبين الجثث ، عثروا على جثة الضابط جاك فرديه ، وبجانبها جثة امراة يتدفق الدم من جرح بليغ فى صدرها ، وقد أطبقت بيديها على عنق الضابط فأزهقت روحه ...

ماتت حليمة بنت ابراهيم العنابى بعد ان تم لها ثأرها وبرت بقسمها . ولكنها لم تنعم بالحب الذى آثرت عليه القتال والجهاد ، فى سبيل وطنها وفى سبيل قومها !

وبعد ثورة أولاد سيدى الشيخ ، التى استمرت عشرين عاما وانتهت فى تلك السنة ، أعيد بناء الضريح ، وتشييد المزار ، وارتفعت فى الفضاء من جديد « قبة سيدى الشيخ » فى بلدة الابيض ..

البطل المصري

فقد حامل العلم عينيه ،
فتلقت العلم منه زوجته ،
وفقدت ذراعها اليمنى فرفعته
باليسرى !

بعد أداء صلاة الفجر ، وقد بدأ الليل يرفع رواقه عن دمشق الفيحاء ، وأسواقها الضيقة ، وبيوتها الهادئة ، وغوطتها الخضراء، أخذ الامير عبد القادر بن محيي الدين الجزائرى مجلسه في صدر القاعة الفسيحة ، وحوله أفراد اسرته الكبيرة ، في ذلك الصباح البهيج ، صباح عيد الاضحى المبارك ، لسنة ١٢٨٠ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٦٣ للميلاد .

كان البطل الخالد ، الذى اختار المدينة الخالدة مقرا له ومنفى، شديد الحرص على الاحتفال بالاعياد كلها ، احتفالا جديرا بمعانيها السامية . فيها يلتئم شمل الاسرة ، ويجتمع رفاق الامير الذين هاجروا معه حول عميدهم . فتنحر الذبائح، وتوزع الصدقات ، وترسل الهدايا، على نفس المجاهدين الذين استشهدوا في المعارك ، هناك ، في جبال الجزائر ووهادها وبواديها ، خلال الحروب التى خاضوا غمارها ضد الغزاة الفرنسيين .

في تلك المواسم ، كانت الذكريات تتزاحم ـ ذهن الرجل الذى قاد أولئك المجاهدين في ساحات الشرف ، والمشاعر المتباينة تتلاطم في صدره ، فيروى من الذكريات ما يلائم المقام ، ولا يقوى دائما على كظم المشاعر ، فتعبر عنها دمعة تنفر من عينه ، وتنساب على خده !

ما أن اطلت شمس ذلك اليوم ، وجعلت خيوطها تداعب المدينة المبكرة في صحوها ، حتى توافد الناس على الدار الرحبة ، المسيحى منهم يسابق المسلم ، والغنى يصطحب الفقير ، والابناء يرافقون آباءهم ، وقد جاءوا مسلمين مهنئين جريا على العادة التى اتبعها الدمشقيون ، منذ اليوم الذى حل فيه الجزائريون بين ظهرانيهم « فأطلقوا على المكان الذى نزلوا فيه اسم « حى المغاربة » كما كانوا يسمونهم .

طاف الخدم على الزائرين بأكواب الشربات وأطباق الحلوى ، وراح أفراد الاسرة يتنقلون بينهم مستقبلين مرحبين ، وانطلقت الاسئلة من الافواه ، موجهة الى رب الدار ، وبعضها مكرر للمرة العاشرة أو اكثر . والامير يرد عليها كلها ، ببشاشة وفصاحة ولباقة .

وفجأة ، ارتفعت فى الخارج جلبة ، واقتربت من القاعة ، ورن فى آذان الحاضرين صوت نسائى متهدج يقول بلهجة مغربيــة واضــحة : « هذه هى اللحظة التى نسعى اليها منذ سنتين ! »

وتلفتت الانظار الى الباب ، وقد ظهرت فيه امرأة فارعة القامة ، تقود رجلاً فارع القامة مثلها ، أدرك الناظرون اليه فى الحال ، أنه ضرير فقدت عيناه النور ، وأن المرأة التى معه تسنده بيدها اليسرى ، وان ذراعها اليمنى مقطوعة من جذرها !

تقدم الاثنان وقد طفح وجهاهما بالبشر والغبطة ، فاخترقا القاعة بطولها ، ووصلا الى حيث الامير متربع علىّ الوسائد ، وأكبا على يديه يغمرانهما بالقبلات ويبللانهما بالدموع ، والحاضرون يتبعونهما بأنظــار تنم عن الدهشة والفضول .

ثم شخصت الابصار الى عبد القادر ...

وسمع صوته خافتا وهو يتمتم اسمين ويكررهما : « ابراهيم ! .. فاطمة ! ... ابراهيم ! .. فاطمة ! . »

ساد الصمت بضع دقائق ...

وارتفع صوت الامير مرة أخرى ، سائلاً :

ـ من أين أنتما قادمان ؟

وأجابت المرأة :

ـ من تونس يا مولاى ...

ـ وكيف وصلتما هنا ؟

ـ مشيا على الاقدام !

ـ ومن دلكما على الطريق الى ؟

ـ الناس فى كل مكان يعرفون مقرك .

ومن كلّ مكان حملونا اليك أطيب التحيات !

ـ متى تركتما تونس ؟

ـ خرجنا من مدينة قابس منذ سنتين . وقطعنا البر كله ، فى



معركة سيدى ابراهيم سنة ١٨٤٥ (الرسام فرنسي)

محاذاة الشاطىء ، فمررنا بطرابلس ، وبرقة ، وبر مصر ، وبلغنا جبال لبنان ، ومنها هبطنا الى الشام للقائك فيها .

ومسحت المراة دموعها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عبرت عن فرحها وسعادتها ، ثم قالت بصوت جهورى :

ــ والآن ، لا يبقى علينا الا ان نستقبل الموت ، فقد تحققت الامنية الوحيدة التى عشنا من أجلها ، منذ خروجنا من الوطن الجريح !

فى تلك الجلسة ، بدار الامير عبد القادر الجزائرى ، بدمشق الفيحاء ، عرف الدمشقيون قصة البطولة ، التى أفقدت فيها ذلك الرجل نور عينيه ، وأفقدت زوجته ذراعها اليمنى .

روى القصة بطلها ، وساعدته فى الرواية بطلتها ، وكان عبد القادر من وقت الى آخر ، يفسر العبارات والكلمات المغربية ، التى تجيء على لسان الراوى أو الراوية ، ويتعذر على السامعين فهمها .

كان ذلك فى سنة ١٢٦١ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٤٥ للميلاد .

تدفقت الجيوش الفرنسية الجرارة على الجزائر خلال الاعوام السابقة ، وقاومها المجاهدون الجزائريون بقيادة الامير عبد القادر خمس عشرة سنة كاملة .

كان النصر ينتقل من صف الى صف ، ومن جهة الى اخرى .

فى تلك السنة ، تراجع المجاهدون أمام كثرة العدد ووفرة العدة ، واتخذوا مواقع جديدة على الحدود ، بين الجزائر والمغرب ، وراحوا من هناك يشنون هجوما بعد آخر على تجمعات الغزاة ، المعتدين ، ويلحقون بهم الخسائر بالارواح والعتاد ، ويغنمون منهم الاسلحة ليواصلوا بها قتالهم ...

وفى شهر سبتمبر من سنة ١٨٤٥ ، حشد الفرنسيون قوةضاربة فى بلدة « سيدى ابراهيم » التى تعرف بهذا الاسم نسبة الى القبة التى تعلو ضريح المرابط سيدى ابراهيم ، وهو من أولياء الله الصالحين ، جاء الى الجزائر من الاندلس ، وانشأ فى ذلك المكان زاوية كان يلقى فيها دروسه الدينية ، فتحولت بعد موته الى ضريح يضم رفاته ، ويتبرك الناس بزيارته .

عول المجاهدون على استرجاع ذلك الموقع المقدس من غاصبيه ، فزحف عبد القادر على راس قوة من رجال القبائل ، واحتل مرتفعات جبل كركور ، على مقربة من بلدة سيدى ابراهيم .

والتحقت النساء بالرجال ، لأخذ نصيبهن من الجهاد ، فاختلطت زغاريدهن باهازيج الحرب .

ادرك العدو الخطر المقترب منه ، وقرر أن يتفاداه قبل أن يحدق به . فتحركت قوة فرنسية نحو المرتفعات التى اعتصم فيها الجزائريون .

وفجأة انحدر الجزائريون صوب هذه القوة من سفوح الجبل ، وبأيديهم السيوف والبنادق . فالتحم الفريقان فى قتال مرير ، وسالت الدماء غزيرة وارتفع الصياح عاليا . وفى بدء المعركة ، سقط مقاتل كان يحمل علم الامير عبد القادر فى مقدمة الصفوف ، فالتقط العلم منة

واحد من رفاقه ، واذا بطلق نارى يصيبه فى احدى عينيه ، وطلق آخر يصيبه فى العين الثانية ، فيهوى على الارض ويهوى العلم معه ، فتثب امرأة كانت تسير معه جنبا الى جنب ، وتأخذ العلم فيرفرف مرة أخرى ، فيبادرها ضابط فرنسى بضربة سـيف مزقت ذراعها اليمنى ، لكنها ظلت ممسكة بالعلم بالذراع اليسرى ، ودفع الضابط حياته ثمنا لضربته الصائبة ، فقد وجه اليه مقاتل جزائرى ضربة صائبة مثلها أردته قتيلا !

حدث ذلك حول العلم فى دقائق معدودة ، وسط الهدير والضجيج، وأحاط رفاق المرأة والرجل بهما ، وانتحوا بالجريحين ناحية أمينة ، بينما القتال يأخذ مجراه نحو نصر كلل فى ذلك اليوم المشـهود شـجاعة المجاهدين !

وقعت معركة جبل كركور فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ ميلادية ــ ١٢٦١ هجرية ــ وعند ظهر ذلك اليوم ، وصل جندى الى موقع الفرنسـيين فى سيدى ابراهيم ، وقال وهو يلهث : « ماتوا جميعا ... وانتهى كل شىء ! » ووقع على الارض يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟

فقد أفنى المجاهدون الجزائريون القوة الزاحفة عليهم عن آخرها !

وزحفوا بدورهم نحو سيدى ابراهيم !

ضربوا الحصار على القوة الفرنسية المعتصمة فيها ، وانقضت ثلاثة أيام بين هجوم ودفاع ، فحاول الفرنسيون اقتحام الحصار وفكه ، ليتجنبوا الهزيمة ، وكان مصيرهم كمصير رفاقهم فى جبل كركور : الفناء التام !

تلك المعركة المزدوجة ، التى أحرز فيها عبد القادر الجزائرى ورجال القبـائل نصرا مزدوجا ، عرفت فى تاريخ الجزائر بمعركة « سـيدى ابراهيم » ففيها هلكت حملتان عسـكريتان ، بجنودهما وضباطهما ، وكان قائد الحملتين ، الكولونيل مونتانياك ، بين قتلى جبل كركور .

أما الرجل الذى التقط العلم من حامله القتيل ، والذى فقد فى سبيله عينيه ، فاسمه « ابراهيم الابراهيمى » وهو من سـكان البلدة ومن حراس الزاوية . وقد أطلق عليه اسم « ابراهيم » تبركا بصـاحب الضريح ، وكنية « الابراهيمى » نسبة الى البلدة التى يقيم فيها .

وأما المرأة التى أخذت منه العلم بعد اصابته ، وفقدت فى سبيله ذراعها اليمنى ، فهى زوجته « فاطمة » .

وهما اللذان لحقا بالامير عبد القادر الجزائرى بعد ثمانيـــة عشر عاما من ذلك الحادث الرائع · والتقيا به فى مقره بمدينة دمشق !

خان الحظ عبد القادر ، فكف عن مواصلة القتال ، تاركا هـــذه المهمة لغيره فى داخل الجزائر ، سنة ١٢٦٤ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٤٧ للميلاد ، ومشى الى الاسر ثم ذهب الى المنفى على ضفاف البوسفور ·

وخرج من الجزائر فريق من رفاقه فى الجهـــاد ، وكان ابراهيم الابراهيمى وزوجته فاطمة بين الذين رحلوا الى تونس ·

كان الرجل فى نحو الخمسين من العمر ، وكانت المرأة فى نحو الثلاثين ·

قادت بعينيها البصيرتين خطواته المتعثرة ، وعلى ذراعها اليسرى اتكأت ذراعه اليمنى ، فى طريقه الى المنفى الذى اختاره لنفسه ولزوجته·

وصلا الى مدينة تونس · ومنها انتقلا الى مدينة قابس حيث وجدا بعض المواطنين من الجزائر · وقد رحلوا مثلهما عن البلد الذى اغتصبه الاغراب ·

ومرت الاعوام تتلوها الأعوام ، بطيئة ، كئيبة ، بعيدة عن البهجة ولكنها غير خالية من الأمل ·

واختلجت فى صدر الزوج الضرير والزوجة الكتعاء أمنية أصبحت موضع اهتمامهما وموضـــوع تفكيرهما الدائم : أن تساعدهما الظروف للحاق بالبطل العظيم الذى حاربا تحت علمه ، وذاقا نشوة النصر تحت قيادته ·

كان عبد القادر قد انتقل من فرنســـا الى بروصة ، ولما خرب الزلزال هذه المدينة التركية فى سنة ١٨٥٥ ميلادية الموافقة لســـنة ١٢٧١ هجرية قرر الذهاب الى دمشق ، واتخذها مقرا دائما له ·

حمل الركبان الى تونس خبر وصوله الى المدينة السورية ، فقرر ابراهيم الابراهيمى وزوجته أن يستأنفا السير ، بعد تلك الاعوام التى قضياها فى قابس · وأن يحاولا اللحاق بالامير فى مقره الجديد ·

ومشيا ··· مشيا غير عابئين بشىء !

الطريق طويل ، ومخاطره كثيرة ، والمشـــقة كبيرة ، والرجل لا يبصر · والمرأة بذراع واحدة !

لكنهما تحملا المشقة ، وتغلبا على المخاطر ، وقطعا الطريق الطويل ، ووصــلا في النهاية الى المحجة التى كانا يقصدانها : دار الأمير الجزائرى فى دمشق !

ولما خطا الاثنان خطواتهما الاخيرة ، فى نهاية الطريق ، وعند باب القاعة التى جلس فيها عبد القادر يتلقى تهانى الدمشقيين بعيد الاضحى، تنفست فاطمة الصعداء ، وانبعثت من بين شفتيهــا تلك العبارة التى أثارت الدهشة والفضول : « هــذه هى اللحظة التى تسعى اليها منـــذ سنتين ! »

فى ذلك اليوم ، لم يقص عبد القادر بن محيى الدين ذكرياته على زائريه جريا على عادته ، بل اســـتمع معهم الى اثنين من أبطال جبـــل كركور ، وهما يرويان ذكرياتهما عن معركة سيدى ابراهيم ·

وأضاف الدمشـــقيون حفنة جديدة من المعلومات ، الى ما كانوا يعرفونه عن حرب الجزائر !

وعبر عبد القادر عن اغتبـــاطه بوصـــول البطل الضرير وزوجته الباسلة سالمين الى دمشق · وقال لهما على مسمع من الحاضرين :

ــ انتما الآن هنا فى بيتكما ، وبين أسرتكما · وانه لمن محاسن الصدف أن التقى بكما بعد فراق طويل ، فى هذا اليوم السعيد ، فيصبح العيد بالنسبة الى عيدين !

وعاش ابراهيم الابراهيمى وفاطمة فى دمشق · فى دار الاسرة الجزائرية · ومات الرجل فى ســـــنة ١٨٦٦ ، ولحقت به المرأة بعد ثلاثة أعوام ، ودفنت بجواره ·

وكان القتال لا يزال مســـتمرا فى داخل الجزائر ، يهدأ حينا ثم يستأنف ، ولما توفى الامير عبد القادر فى سنة ١٨٨٣ ميـلادية الموافقة لسنة ١٣٠٠ هجرية كانت الثورات القومية فى الجزائر متواصـــلة ، وظلت كذلك ···

يمينة أميرة الصحراء

تركت مدينتها الزاخرة
بأسباب التسلية ، ولحقت
بالرجل الذى أحبها الى بطن
الصحراء ، حيث أشعة
الشمس محرقة ، ورياح
السموم تهب من كل صوب !

ان المسافر الى مدينة الجزائر قاصدا الى الصحراء ، سالكا فى سيره الطريق الى مدينة الاغواط ، يمر بقبة ضخمة عالية هى ضريح من أضرحة الاولياء ويسترعى نظره حول تلك القبة ، عدد الزائرين والمصلين ، الذين جاءوا من الحواضر والبوادى ، للتبرك بذلك المقام الجليل .

وتزداد دهشته اذا ما اقترب من تلك القبة ، وتطلع الى تفاصيلها، لأنه يرى فى أحد أركانهـا صليبا ـ وما عهـدنا أضرحة الاولياء المسلمين تحمل الصلبان بين جدرانها !

واذا سأل المسافر أولئك الزائرين ، لعلم منهم أن هذا أحد أضرحة آل التيجانى ، وقد دفنت فيه الاميرة « يمينة » أميرة الصحراء .

وقد ينبئـه أحدهم بمعنى وجود رسـم الصليب فى القبة ، وقد لا يستطيع أحد منهم أن ينبئـه بذلك ... والواقع ، ان « يمينـة » امرأة نصرانية ، ولكنها كانت زوجة زعيم من زعماء البلاد المحبوبين ، وولى من أوليائها الصالحين ، فلا غرابة فى أن ترقد رقادها الاخير فى ذلك الضريح العائلى ، وأن يعـلو الصليب قبرها ما دامت قد تركت فى قلوب النـاس أجمعين أثرا طيبا وذكرى خالدة !

من هى « يمينة » أميرة الصحراء ؟

فى سـنة ١٨٧١ ذاقت فرنسـا مرارة الانكسـار وتجرعت كأس الهزيمة والذل حتى الثمالة . فان الجيوش الالمانية طغت عليها ، ونكلت بجيوشها في الميادين، ووطأت سنابك الخيول البروسية شوارع باريس، وفرضت المانيا على عدوتها القديمة شروطا قاسية فأرغمتهـا على قبول الصلح كما أراده الامبراطور غليوم الاول ووزيره بسمارك .

ورحلت دوائر الحكومة الفرنسية عن عاصمتها باريس ، ولجأت الى مدينـة بوردو ، وجعلت تنتظر هناك ، فى مأمن نسبى ، عودة الميـاه الى مجاريها ، وجلاء الأعداء عن أرض الوطن .

وغصت مدينة بوردو باللاجئين اليها من كل فج وصوب . وكان بينهم أفراد أسرة معروفة ، يشغل بعضهم وظائف حكومية رفيعة .

حلت الاسرة فى أحد فنـادق المدينة ، ومعهـا فتاة تدعى « أوريلى بيكار » رافقت ربة البيت كوصيفة لها ·

واوريلى بيكار فتاة جميلة ، اغدقت عليها الطبيعة نعمها بلا حساب، فلا غرابة اذن فى أن تلفت تلك الغـادة الحسناء أنظار الناس ، وان تنفذ سهام الحاظها الفاتكة الى أعماق القلوب ·

وكان يقيم فى بوردو ، فى ذلك الوقت ، فريق من زعماء القبـائل العربية فى الجزائر ، جاءوا الى فرنسا فى أثناء الحرب السبعينية ، حاملين الى ولاة الأمور تحيـة قبائلهم وولاء رجالهم ، قائلين : انهم لن يثوروا على فرنسا كما أشيع عنهم ، وان شمائلهم العربية الموروثة تمنعهم من اغتنام تلك الفرصة السانحة ، وضرب فرنسا الضعيفة المهزومة من الوراء !·

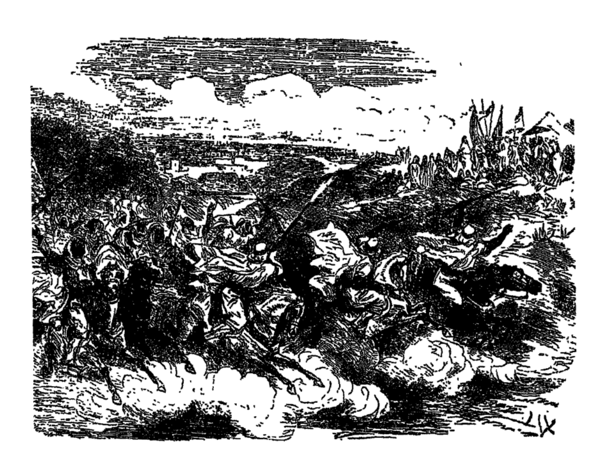
وكان بين أولئك الزعماء رجـل له عند قومه مكانة سـامية وكلمة مسموعة ، تردد الالسنة اسمه باحترام وتدعو له بالعز والعمر الطويل، من الجزائر الى تونس ، ومن ساحل البحر الى أطراف الصحراء ·

ذلك الرجل هو « سى أحمد التيجانى » سليل أسرة نبيلة ، أنجبت للجزائر أبطالا وعلماء وأولياء ، وحارب أبنـاؤها فى صفوف الجزائريين من قديم الزمان ، وأبلوا فى الميـادين بلاء حسـنا · وكان آخر عهـدهم بالبطولة والفروسية ، فى أثناء المعارك التى خاضوا غمارها بجانب بطل الجزائر الخـالد الأمير عبد القـادر بن محيى الدين ، ضـد الفرنسـيين أنفسهم !

حمل سى أحمد التجانى لولاة الأمور فى بوردو الطمأنينـة التى كانوا متعطشين اليها ، وأقام مدة من الزمن فى تلك المدينة الفرنسية ، حيث أحاطه الناس بأنواع الاجلال والاكرام ·
وشاءت الاقدار أن يقع نظره على الفتاة أوريلى بيكار ، ابنة مقاطعة اللورين الهاربة الى بوردو مع الهاربين !

وكان الزعيم العربى فى عنفوان شـبابه ، وسرعان ما خفق قلبـه بحب تلك الغادة الهيفاء · فرغب فيها زوجة له · وعزم على اقتلاع ذلك الغصن الرطب من الدوحة الفرنسية · ونقله الى مقره البعيد · فى بطن الصحراء ·

كاشف الفتـاة بمـا كان يجول فى خاطره وقال لهـا بلا مواربة ولا رياء :



الفرسان !

اسمعى يا ابنتى . اننى أقيم فى وسط الرمال . فى بقعة بعيدة عن المدن ومساكن الناس . تتسلط عليها أشـعة الشمس المحرقة . وتهب عليها رياح السموم من كل جانب . فلا شىء هناك مما يحيط بك هنا من أسباب الراحة والتسلية واللهو والمرح . ولكن الشعب الذى يخضع لى شعب شجاع شهم طيب القلب . وقد أحببتك . فهل ترغبين فى اللحاق بى الى هناك حيث تعيشين بين أبناء قومى تحت الخيام التى لا تسـتقر أطنابها فى مكان ؟

فكان الجواب كلمة واحدة .

ـ نعم !

غادر سى أحمد التيجانى أرض فرنسا ، ومعه زوجته أوريلى بيكار !

وأقيمت فى مدينة الجزائر ، حفلة غريبة ، لم تشهد البلاد مثلها ، فقد مثل الزعيم الجزائرى مع زوجته الفرنسية أمام « الكردينال دى لافيجرى » ممثل الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك القطر العربى ، واقسم أحمد التيجانى المسلم التقى الورع أمام الهيكل المسيحى بأن يحتفظ بزوجته مدى الحياة ، وألا يتخذ لنفسه امرأة سواها ١٠

واقسمت أوريلى بيكار الفرنسية المسيحية بأن تكون لزوجها العربى المسلم طائعة مخلصة ، وألا تعصى له أمرا فى شأن من الشئون ٠

وعرفت أوريلى الجميلة كيف تكتسب القلوب وتتجنب بينها وبين أسرة زوجها كل اصطدام وخلاف ، فأحبها الناس وأطلقوا عليها اسم « يمينة أميرة الصحراء » ٠

وكانت المرأة جديرة حقا بذلك اللقب الرفيع ٠

فقد اخلصت لزوجها اخلاصا لاشائبة فيه ، ووضعت مواهبها الكثيرة فى خدمة القوم الذين التحقت بهم وأصبحت منهم ، وعاشت فى الجزائر نحو خمسين سنة كانت فى خلالها مثال الفضيلة والامانة والهمة والنشاط ٠

مات أحمد التجانى فاتخذها أخوه زوجة له ، ولكن الاقدار أبت الا أن تحترم المرأة من زوجها الثانى ، وكان ذلك قبيل الحرب العظمى ٠

وفى سنة ١٩١٤ ، غادرت « يمينة أميرة الصحراء » مدينة الجزائر حيث كانت تقيم فى ذلك الوقت، وانطلقت من جديد الى الصحراء، لدعوة القبائل الى الاسراع لنجدة وطنها فرنسا ٠

فلبت القبائل دعوتها ، وحملت البوارج الفرنسية من سواحل الجزائر الى مرسيليا وطولون، كتائب الفرسان الجزائريين الذين التحقوا بالجيش الفرنسى اجابة لرغبة الأميرة المحبوبة ! وللمرة الثانية ، لم يغدر الجزائريون بفرنسا ولم يطعنوها من الخلف ٠

وعندما وضعت الحرب أوزارها كانت اوريلى بيكار أو يمينة، مقيمة عند أهلها فى مقاطعة اللورين ، بعد أن بقيت عشرات السنين بعيدة عن وطنها ٠

ولكن أخبارا مزعجة وردت عليها من الجزائر ، فان وفاة زوجيها أحمد وأخيه الواحد بعد الآخر أثارت خلافا بين أفراد الاسرة ، حول اختيار الزعيم الذى يحل محلهما ٠

كانت يمينة قد بلغت الثمانين من العمر ولكنها لم تتردد فى الرحيل فركبت البحر من جديد عائدة الى الصحراء ٠

وما أن وصلت الى الاغواط ، حتى التف حولهـــا أفراد الأسرة ، وتعهدوا بقبول الحل الذى تراه الاميرة الجليلة المحبوبة ٠

وبعد أن أعادت يمينة الصفـــاء الى القلوب اغمضت عينيهـــا للمرة الاخيرة ، مرتاحة الى النتيجة ، سعيدة بما قامت به من أعمال فى حياتها الطويلة ٠

ونقل جثمانها الى ضريح الأسرة ، حيث ترقد «يمينة أميرة الصحراء» المسيحية الفرنسية ، زوجة أحمد التيجانى المسلم العربى جنبا الى جنب مع أفراد الاسرة النبيلة الجليلة ٠

عائشة المغربية

سعت الى الثائرين من العدو :
الثار لوطنها ، والثار لأبيها ،
فبلغت الهدف الذي سعت
اليه !

قررت الحكومة الاسبانية اخضاع « الريف المغربى » من ساحله الى أقصى جباله وسهوله،والضرب بيد أرادتها أن تكون من حديد ، على ما بدا هنا وهنالك من حركات عصيان ، وميول الى التحرر من ربقة الاستعمار وذل الاحتلال ، بين القبائل والعشائر ، وأهل المدن وسكان القرى والمزارع ·

وصدرت الاوامر من مدريد العاصمة ، الى القواد والحكام ، بأن يكونوا تلك اليد الحديدية الضاربة ، وبأن يبطشوا بأولئك العرب المسودين الذين تحدثهم النفس بالانتفاض على سادتهم الاسبان ·

وحشد الغاصبون جيشين لجبين ، احدهما بقيادة الجنرال بيرانجر، عهد اليه فى تطويق المنطقة التى يتزعمها «الريسولى » ومحاولة استمالته بالوعود والاموال ، والثانى بقيادة الجنرال سلفسترو للزحف فى داخل البلاد وتثبيت أقدام الاسبانيين فيها ·

وجمع سلفسترو جموع قواته ومن أغرتهم الوعود والهبات الاسبانية من أبناء الريف ، ووقف خطيبا فقال :

« بعد شهر واحد من هذا التاريخ ، سنلتقى مرة أخرى فى القرى المشرفة على البحر، ونشرب معا أقداح الشاى الساخنة، عربون الصداقة والتعاون · واعلموا أن الاسبانيين سيشربون تلك الاقداح ، سواء أرضى العرب أن يشربوها معهم أم لا ! وسوف تدين جميع البلاد لنا بالطاعة شئتم أم أبيتم ! »

وكان الأمير عبد الكريم الخطابى فى ذلك الوقت يطوف البوادى والحواضر ، مستنهضا همم الناس ، داعيا مواطنيه الى السلاح لانقاذ الريف من نير ثقيل لا ترضى به أعناق الاحرار الأباة من الرجال فبلغته أقوال القائد الاسبانى المتعجرف ، وأدرك أن ساعة العمل قد دنت !

وانطلق رسله فى جميع الانحاء يحددون للمجاهدين موعدا ومكانا للقاء ، وفى شهر يونيو ١٩٢١ للميلاد الموافقة لسنة ١٣٣٩ للهجرة · بدأت طلائع العرب المسلحين تفد من كل حدب وصوب ، الى المواقع التى

اختارها زعيم الثورة الريفية حول المعسكرات الاسبانية فى « أنوال » وقد أقسم كل من الوافدين على جعل حياته فداء لوطنه ، فاما وثبة الى الامام ، نحو الحرية المنشودة واما استشهاد فى الميدان بين قرع الطبول وصهيل الخيول !

ـ مرحى ! مرحى ! على بركة الله !

بهذه الكلمات كان عبد الكريم واخوه وعمه وابن عمه ، الذين حملوا عبء القيادة فى تلك الظروف العصيبة ، يستقبلون القادمين من شيوخ وكهول وشبان ، وقد هرعوا خفافا سراعا شجعانا ، تلبية للنداء وطلبا للطعن والنزال !

وأبت المرأة المغربية ـ شأن كل امرأة عربية يوم الكريهة والنزول ـ أن تدع الرجال يستأثرون بالقتال وينفردون فىالبذل والتضحية ، فوفد على معاقل المجاهدين عدد كبير من الحضريات والقرويات والبدويات ينشدن المساهمة فى حرب التحرير ، ويبغين خوض المعارك ، مع بعولهن واخوتهن وفلذات أكبادهن !

ـ مرحى ، مرحى ! على بركة الله !

وجاءت بين النساء صبية فى الخامسة عشرة من العمر ، بهية الطلعة ، واسعة العينين ، حادة البصر ، جهورية الصوت ، تبدو الجرأة فى كل كلمة من كلماتها ، وكل حركة من حركاتها .

وخاطبت عبد الكريم قائلة :

ـ جئتك يا زعيم القوم فى طلب ثارين ، والسعى الى هدفين .. عندى سيف وبندقية .. خذ البندقية لاحد رجالك ، فالسيف يكفينى ولن اقاتل الا به ... وعندى هذه الحلى ، ورثتها عن أمى رحمها الله ، فخذها لبيت المال فبيت المال احوج اليها منى... وعندىماية وخمسون « دوروس » اقتصدها أبى قبل موته ، فخذها أيضا وضمها الى الحلى فى بيت المال .. ورجائى الاخير يا عبد الكريم ، ان تترك لى الحرية فى طلب الثار كيفما شئت وأينما أردت .. فان لى غربمين : اسبانيا التى تحاول اغتصاب وطنى ، وضابطا اسبانيا حاول اغتصاب شرفى !

اصغى القائد المغربى بدهشة ممزوجة بالاعجاب والاكبار ، الى حديث الفتاة النبيلة ، التى جاءته تفدى الوطن بما ملكت يداها ، فأثنى على تلك العاطفة العربية السامية ، ورحب بالصبية أجمل ترحيب :



عبدالكريم الخطابى
يوم قام بثورته سنة ١٩٢١

ـ لا عدم الريف أمثالك يا ابنتى ! ما اسمك ؟

ـ عائشة .

ـ من أين جئت ؟

ـ من مدينة مليلة ...

ـ وابنة من أنت ؟

ـ ابنة أبى زيان ...

ـ أبو زيان ، صاحب الحانوت بجوار الثكنة الاسبانية ؟

ـ هو بعينه ...

ـ هل مات أبوك ؟

ـ قتلة الاسبان رميا بالرصاص !

ـ كيف ؟ ولماذا ؟

ـ دعنى اقص عليك ماحدث يا عبدالكريم ، فانت اليوم أولى الناس بمعرفة العوامل التى تحملنى على طلب الثأر مرتين ، والسعى الى هدفين

فى آن واحد ، كما قلت لك ! لقد أصبحت الآن يتيمة ، لا سند لى ولا معين ، غير الله رب العالمين !

قصت عائشة على عبد الكريم الخطابى قصتها ، وروت له المأساة التى وقعت لها فى مدينة مليلة ، حيث كانت تعيش مع أبيها صاحب الحانوت ...

كان أبو زيان جالسا ذات يوم كعادته، يبيع مختلف السلع للعرب والاسبان على السواء ، واذا بابنته تدخل عليه ممزقة الثياب ، محلولة الشعر ، خائفة لاهثة . فسالها عن الخبر :

ـ ابى ، لقد كتمت عنك أمر ذلك الضابط الاسبانى الذى يلاحقنى ويضايقنى ، ولكننى بلغت اليوم آخر حدود الصبر والجلد ، وأخشى أن يلحقنى منه مكروه ! فقد هاجمنى ذلك الوقح ، على مسافة يسيرة من الحانوت، وعلى مقربة من ثكنة الجيش، ولو لم أقاوم ، ثم أفلت منه مهرولة الى هنا ، لوقع منه ما يلحق بى وبك عارا لا يمحى . أبى ، لنهرب من هنا !..

جعل « أبو زيان » يهدىء روع ابنته ، ويلاطفها ، ويعيد الطمأنينة الى نفسها . وعلم منها أن الضابط « كارلوس » الذى يمر بالحانوت فى ذهابه وأوبته بين الثكنة والمدينة، هو الرجل الذى تتهمه الفتاة بأنه يحاول الاعتداء عليها ، ويواصل اغراءها واغواءها ، بالوعد حينا وبالوعيد أحيانا ، وانه فى ذلك اليوم تطاول عليها بجرأة لا يقدم عليها غير رجل يثق بأنه فى مأمن من العقاب ، وبعيد عن متناول العدالة !

وكررت الفتاة رجاءها :

ـ لنهرب يا أبى من هنا !.. فان المغربى أصبح غريبا فى وطنه ، وبنات المغرب أصبحن معرضات للاذى فى عقر دارهن ، من أولئك العلوج الاجلاف !

لكن أبا زيان طبع على جبين ابنته قبلة حارة ، وأخذ راسها بين يديه ، وقال وهو يتصنع الهدوء والطمأنينة :

ـ كلا يا عائشة ! لن نهرب . بل ان ذلك الضابط الاثيم هو الذى سيهرب من البلدة ، الى غير عودة !

وفى اليوم التالى ، قبل شروق الشمس ، كان أبو زيان متربصا للضابط خلف حانوته الصغير، وقد أمر ابنته بأن تقف متعمدة فى طريق

الأسباني . فوقع ما كان بالحسبان ، وعاود الرجل تهجمه على الفتاة وحاول أن يستدرجها الى الثكنة ، واذا بصاحب الحانوت يثب من مخبئه ويلقى على المعتدى الاثيم درسا قاسيا ، فيشبعه ضربا ، ويفهمه أن للاعراض العربية حماة يدفعون عنها الاذى، وحراسا يحرسونها من عدوان الارذال اللئام .

لكن الضابط الذى تجرأ على فتاة ضعيفة ، جعل يستغيث ويحاول الافلات من قبضة الرجل القوى ، فأسرع لاغاثته لفيف من رفاقه، واحاط اولئك الرفاق بالاب وابنته ، وتلقت عائشة على رأسها ضربة شديدة أفقدتها الوعى فسقطت على الارض .

وعندما أفاقت من غشوتها ، وجدت نفسها جنبا الى جنب مع أبيها وقد أصبح جثة هامدة ، مزقها الرصاص وحطمت الاقدام رأسها .!

ترك الاسبانيون الضحيتين على التراب ، فى بركة من الدماء ، وعادوا من حيث أتو آمنين مطمئنين ضاحكين !

وتجمع العرب حول القتيل وابنته ، فحملوا الجثة الى الحانوت وراحوا يعزون الفتاة راجين لها الصبر والسلوان !

ورفعت عائشة أمرها الى القيادة الاسبانية فصدت فى وجهها الابواب ، وقيل لها : ان الضباط الذين قتلوا أباها كانوا فى حالة الدفاع عن النفس ، وانها على ضلال فى اعتقادها أن الاسبانى لا يحق له أن يقتل العربى دون أن يتعرض للعقاب !

وأدركت الفتاة أن ثأر العربى فى بلد يحتله الاجنبى يؤخذ أخذا ، وان حالة الافراد كحالة الشعوب ، فالاجنبى المغتصب لا يعطى الفرد عدلا ولا يمنح الشعب حقا ، وانما كل شىء ينتزع منه انتزاعا : فدية القتيل وفدية الوطن !

ولهذا ، عولت عائشة المغربية ، ابنة أبى زيان صاحب الحانوت فى مليلة على الالتحاق بالمجاهدين فى معاقلهم ، طلبا للثأرين ثأر الأب الشهيد وثأر الوطن المستعبد .

وختمت عائشة حديثها قائلة :

ـ هذه قصتى يا عبد الكريم ! فقد حملت معى البندقية والسيف،

اللذين كان أبى يخبئهما لليـــوم العصيب ، وحملت ما نملك من حلى ونقود ، وجئتك للجهاد فى صفوف المجاهدين ، والاستشهاد فى مواكب المستشهدين !

فى الواحد والعشرين من شهر يوليو ســنة ١٩٢١ ، وثب العرب وثبتهم الأولى ، وضج القضاء بالتهليل والتكبير ، وصمت الآذان صيحات المجـاهدين ، المنطلقين على خيولهم ، وليس فى أيديهم غـير البنـادق والصوارم ، نحو اعشاش المدافع والرشاشات !

وخلد عبد الكريم الخطابى وأبطاله فى سجل التاريخ يوما من أيام العرب المجيدة ، هو يوم « أنوال » النير الوضاح !

ففى تلك المعركة الرائعـة ، التى ظلت مشـتعلة الاوار ثلاثة أيام كاملة ، فتـكت حفنـة من رجال المغرب ونسـائه بعشرين الف اسبانى مسلحين ، ذبحوا ذبح الانعام ، فلم يفلت منهم غير عشرات ألقوا السلاح وطلبوا النجـاة بالهرب من الميـدان ، وحاول ثلاثة الاف منهم ، بقيـادة الجنرال « نافارو » أن ينقذوا الموقف ويمحوا العار عن الجيش الاسبانى، ولكنهم ارغموا على التسليم فأرسلوا الى معتقلات الاسرى فى الجبال !

وفى تلك المعـركة ، بين الاسـبان المضعضعين المنهزمين ، عثرت عائشة المغربية بغريمهـا « كارلوس » الذى حاول أن يسلبها شرفها ، والذى كان سببا فى موت أبيها ، فصاحت به :

ـ سيفك يا أنذل الرجال ! فالفتاة المغربية لا تعتدى على اعزل ، ولا تقتل من لا سلاح بيده ، يدافع به عن نفسه ! سيفك !

فار فائر الرجل ، لرؤية تلك الصبية الحسناء التى زجرته واذاقته المهانة فى مليلة فوثب عليها والسيف بيده ، واشتبك النصلان فى عراك عنيف ، ومزق سيف أبى زيان صدر الضابط الاسبانى ، كمـا مزق من قبل رصاص الاسبانيين صدر صاحب الحانوت وهو يدافع عن ابنته !

كانت هزيمة الغاصبين فى تلك المعركة منكرة كاملة .

عشرون ألفا قتلوا . وثلاثة آلاف أسروا ، فدفعت حكومة أسبانيا خمسين مليونا لافتدائهم وغنم العرب ستين مدفعا ، ومئات من مركبات النقل ، وأدوات المواصلات ، وعشرات الآلاف من البنادق ، وما يكفى من المؤن والذخائر لمواصلة حرب التحرير !

وانتحر القائد العام الجنرال سلفستر فى الميدان ، وهو يرى بعينيه تمزق جيشه وذلة بلاده !

وفازت عائشة المغربية بالثأرين وبلغت الهدفين !

ومضى عبد الكريم الخطابى من نصر الى نصر ، راجيـا أن يحقق الله آمال المغرب على يده ، أو على يد غيره من بعده اذا شاء ، فهو وحده العلى القدير !



ما أكثر الأبطـال المجهولين
في الثـورات والحـروب ، وما
أجدرهم بالاعجاب والتقدير !

أرسل الأمير عبد الكريم الخطابى فى طلب رجل من أبطاله المخلصين الأوفياء ـ وكان جميع رجال عبد الكريم أبطالا أوفياء مخلصين ـ واختلى به فى مركز قيادته ، وأسر اليه قائلا :

ـ لقد اخترتك اليوم يا قاسم من بين الرفاق المجاهدين ، لأعهد اليك بمهمة يتوقف عليها فوزنا فى هذه المرحلة من حرب التحرير التى خضنا غمارها معتمدين على الله . فنحن الآن فى السنة الرابعة من جهادنا، وقد انقسمت جيوشنا الى قسمين : قسم يحارب فى هذه الجبهة الشرقية، وقسم يحارب فى الجبهة الغربية بقيادة أخى محمد . وهذه رسالة تحوى الكثير من الأسرار ، وتبسط الخطة التى قر الرأى على تنفيذها فى الجبهتين معا ، وفى وقت واحد . وأنا فى حاجة الى رسول أمين مقدام ، يحمل هذه الوثيقة الى أخى محمد فى مركز قيادته بالقرب من شفشاون . فخذها وتوكل على الله . واعلم أن وقوعها فى أيدى الأعداء قد يجد علينا الوبال ، ويسبب اراقة دم مغربى نحن به ضنينون، ويفسد علينا خطتنا ويؤخر يوم النصر .. اذهب برعاية الله وتوفيقه !

عانق القائد رسوله ، الذى تناول من يده الرسالة المخفية فى غلاف من الجلد ، وخبأها فى طيات ثوبه ، وقد بلغ به التأثر مبلغه فلم تخرج من فمه غير هذه الكلمات :

ـ شكرا ..! ستصل الرسالة ..! ولن تقع فى أيدى الاسبانيين مهما تكن المخاطر التى تحف بى !

وانطلق قاسم مشيعا بنظرات الامير المغربى وتمنياته .

كانت ثورة الريف المغربى ، التى نشبت فى شهر مايو سنة ١٩٢١ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٩٣٩ للجهرة ، قد تحولت شيئا فشيئا الى حرب نظامية حقيقية ، وذلك منذ أن مزق عبد الكريم جيش الاسبان تمزيقا مروعا فى معركة « أنوال » فى شهر يوليو من السنة نفسها ، ففى تلك المعركة التى استمرت ثلاثة أيام بلياليها ، كتب الفوز لحفنة من المجاهدين المغاربة على عشرين ألف أسبانى ذبحوا عن آخرهم ، وثلاثة

ألاف سلموا أنفسهم مفضلين الأسر على الموت ، ولم ينج من ذلك الجيش اللجب غير بضع مئات تسللوا الى مدينــة « مليلة » ليذيعوا فيهــا خبر الكارثة الماحقة · أما قائد الاسبانيين ، الجنرال سلفستر ، فقد انتحر فى الميدان حزنا وغيظا !

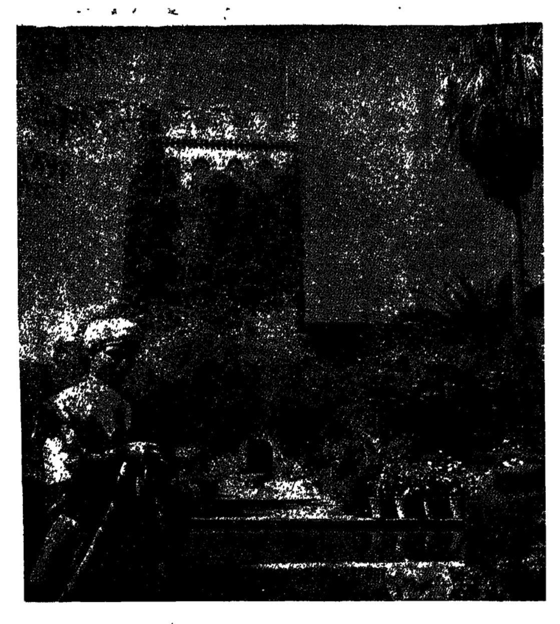
وكانت أســلاب المعركة كافيــة لتسليح جيش المجاهدين · فقد غنموا ستين مدفعا ، وعشرات الآلاف من البنادق والرشاشات ، وكميات عظيمة من معدات القتال والنقل والمواصلات والذخائر · ورتب عبدالكريم جيشه منذ ذلك اليوم كتائب من المشاة والفرسان والمدفعية ، وراح ينازل خصومه حينما وجدهم ، بل يطاردهم من موقع الى موقع ، وينتزع منهم أرض الوطن المغربي رقعة بعد رقعة ، ومدينة بعد أخرى !

فى صيف سنة ١٩٢٤ عول القائد المجاهد على توجيه ضربة قاضية الى العدو ، الذى تلقى المدد من أسبانيا ، وأعد العــدة لهجوم مضاد ، على أمل استرجاع ما فقده الاسبانيون فى السنوات الثــلاث السابقة · ولهذا ، فقد عمد عبد الــكريم الى انشاء جبهتين : جبهــة شرقية يقودها بنفسه ، وجبهة غربية عهد بقيادتها الى أخيه وساعده الأيمن ، وقد عرفت المعارك التى اشتبك فيها المغاربة بالاسبانيين فى الجبهــة الاولى ، طوال الصيف وشطرا من الخريف ، بحرب « سيدى مسعود » وعرفت معارك الجبهــة الغربية ، بحرب « شفشاون » أو على طريقــة الاختصار فى لفظ أسماء البلدان عند المغاربة ، بمعركة « الشاون » ·

تأهب كل من القائد العام وأخيه لبدء الهجوم فى آن واحد · فكان على الأمير محمد ، فى الجبهة الغربية ، أن يستولى على بلدة « شفشاون » ويطرد الاسبانيين نحو الســاحل · وعلى الامير عبد الــكريم أن يشدد الخناق على جزء من الجيش الاسبانى المطوق فى الجبهة الشرقية ، وأن يمنع الجزء الآخر من نجدة الحامية المرابطة فى «شـفشـاون» فيخف الضغط عن أخيه ··

وحمل المخبرون المنبثون فى جميع الانحاء الى عبدالكريم انباء هامة عن حركات الاسبانيين ، وعن الامدادات المغربية المرتقبة ، ورسم الامير خطته النهــائية ، ودون كل ذلك فى خطاب عهــد الى رسوله « قاسم » بحملة الى أخيــه · وعلى مضمون ذلك الخطاب كان يتوقف مصير المعركة القادمة ، أو على الأقل بعض مصيرها ·

بينما كان الاميرمحمد ذات يوم يتشاورمع أقرب معاونيه فى توزيع



في مدينة شفشاون بالريف
المغربي حيث هزم العرب
الجيش الاسباني

قواته ، وتعيين مهمة كل كتيبة من كتائبه ، اذا برجاله يسوقون اليه امرأة بدوية فى حالة يرثى لها من الاعياء ، مهلهلة الثياب فاغرة العينين، وقد تجمد الدم على فمها وخديها ، وجميع الدلائل تدل على أنها ولدت خرساء أو فقدت النطق على أثر حادث وقع لها ..

الغربية ، وانسحب الاسـبانيون من بلدة « شفشان » فدخلتها القوات العربية ، وسط الاهازيج وقرع الطبول ، تخفق فوقها الأعلام ويضحك لهـا الجو الصافى . وتقهقـر الاسـبانيون الى « تطـوان » و « سـبتة » و « العرائش » حيث اعتصمت فلولهم مذعورة مرتبكة . وجمع المجاهدون غنائم المعارك وأسلابها ، واستعدوا لوثبة أخرى الى الامام ، لتطويق العدو على طول الساحل والقضاء عليه ...

لـكن العدو المرتجف الخائف ، راح يفكر بعد تلك السلسلة من الكوارث فى طريقة يتجنب بهـا الهلاك ، فحـاول التخلص من خصـمه باغتياله ولكن المؤامرة فشلت . فعمد الى طلب النجدة من دولة أخرى ! فان اسبانيا في محنتها قررت أن تبسط يدها لجارتها فرنسا، لكى تمدها بالرجال والعتاد ، فتتعاون دولتان كبيرتان ، تملكان الجيوش والأساطيل والطائرات ، فى القضاء على شعب لا يتجـاوز عدده مليونا واحدا ، ولا يطلب غير قسـطه من الحيـاة ، ومكانه تحـت الشمس ، ونصـيبه من الحرية !.

بعـد معركة « شفشـاون » ، أمضى الامير محمـد الى أخيه الامير عبد الكريم بما يساوره من دهشة واستغراب ، بشأن المرأة التى حملت اليه الرسالة فى مركز قيادته . ولم يكن عبد الكريم قد عرف شيئا بعد عن رسوله «قاسم» ، فتولاه القلق ، وجعل القائدان الاخوان يستفهمان ويستقصيان الاخبار ، فتمكنا فى النهاية من معرفة حقيقة ما حدث ، أو بعض الحقيقة ..

فقد عثرت فصيلة من الفرسان المغاربة على جثة « قاسم » مشوهة تطرق اليها البلاء ، خلف أكمة وعرة ، على مسافة خمسين كيلومترا من مدينة « شفشاون » . وقال أسير من الاسبانيين : انه وبعض رفاقه قتلوا رجلا عربيا فى ذلك المـكان . فاستنتج الاميران من ذلك أن امرأة بدوية كانت على مقربة من الاكمـة ، فرأت الاسبانيين يطلقون الرصـاص على الرجل وأسرعت لنجدته ، وان قاسـما سلمها الرسالة وطلب منها أن تحملها الى مقر القيادةفتعهدت له بذلك وتركته ميتا أو مشرفا على الموت، ثم واصلت السير فداهمها الاسبانيون أيضـا وأطلقوا الرصاص عليهـا فاصيبت فى عنقها وفمها ، وكانت الاصـابة سببا لفقدانهـا النطق ، فاصبحت خرساء ولكنها تجلدت ، وتحملت آلامها ، وواصلت السـير

أسبانيا المطلق ، الجنرال الدكتاتور بريمو دى ريفيرا ، أن يتولى قيـادة الحرب بنفسه ، فغادر عاصمته مدريد قاصـدا الى المغرب ، حيث حشد جيوشا لجبةجديدة، كان مصيرها أشد هولا من الجيوش اللجبة السابقة. فقد انتصر عبد الـكريم فى الجبهة الشرقيـة ، وانتصر محمد فى الجبهة

الغربية ، وانسحب الاسـبانيون من بلدة « شفشان » فدخلتها القوات العربية ، وسط الاهازيج وقرع الطبول ، تخفق فوقها الأعلام ويضحك لهـا الجو الصافى • وتقهقـر الاسـبانيون الى « تطـوان » و « سـبتة » و « العرائش » حيث اعتصمت فلولهم مذعورة مرتبكة • وجمع المجاهدون غنائم المعارك وأسلابها ، واستعدوا لوثبة أخرى الى الامام ، لتطويق العدو على طول الساحل والقضاء عليه •••

لـكن العدو المرتجف الخائف ، راح يفكر بعد تلك السلسلة من الكوارث فى طريقة يتجنب بهـا الهلاك ، فحـاول التخلص من خصـمه باغتياله ولكن المؤامرة فشلت • فعمد الى طلب النجدة من دولة أخرى ! فان أسبانيا فى محنتها قررت أن تبسط يدها لجارتها فرنسا، لكى تمدها بالرجال والعتاد ، فتتعاون دولتان كبيرتان ، تملكان الجيوش والأساطيل والطائرات ، فى القضاء على شعب لا يتجـاوز عدده مليونا واحدا ، ولا يطلب غير قسـطه من الحيـاة ، ومكانه تحـت الشمس ، ونصـيبه من الحرية !•

بعـد معركة « شفشـاون » ، أمضى الامير محمـد الى أخيه الامير عبد الكريم بما يساوره من دهشة واستغراب ، بشأن المرأة التى حملت اليه الرسالة فى مركز قيادته • ولم يكن عبد الكريم قد عرف شيئا بعد عن رسوله «قاسم» ، فتولاه القلق ، وجعل القائدان الاخوان يستفهمان ويستقصيان الاخبار ، فتمكنا فى النهاية من معرفة حقيقة ما حدث ، أو بعض الحقيقة ••

فقد عثرت فصيلة من الفرسان المغاربة على جثة « قاسم » مشوهة تطرق اليها البلاء ، خلف أكمة وعرة ، على مسافة خمسين كيلومترا من مدينة « شفشاون » • وقال أسير من الاسبانيين : انه وبعض رفاقه قتلوا رجلا عربيا فى ذلك المـكان • فاستنتج الاميران من ذلك أن امرأة بدوية كانت على مقربة من الاكمـة ، فرأت الاسبانيين يطلقون الرصـاص على الرجل واسرعت لنجدته ، وان قاسـما سلمها الرسالة وطلب منها أن تحملها الى مقر القيادةفتعهدت له بذلك وتركته ميتا أو مشرفا على الموت، ثم واصلت السير فداهمها الاسبانيون أيضـا وأطلقوا الرصاص عليهـا فاصيبت فى عنقها وفمها ، وكانت الاصـابة سببا لفقدانهـا النطق ، فأصبحت خرساء ولكنها تجلدت ، وتحملت آلامها ، وواصلت السـير

وسلمت الأمانة الى صاحبها ، ولكنها دفعت حياتها ثمنـــا لذلك الوفاء المغربى ، ولتلك الشهامة العربية !

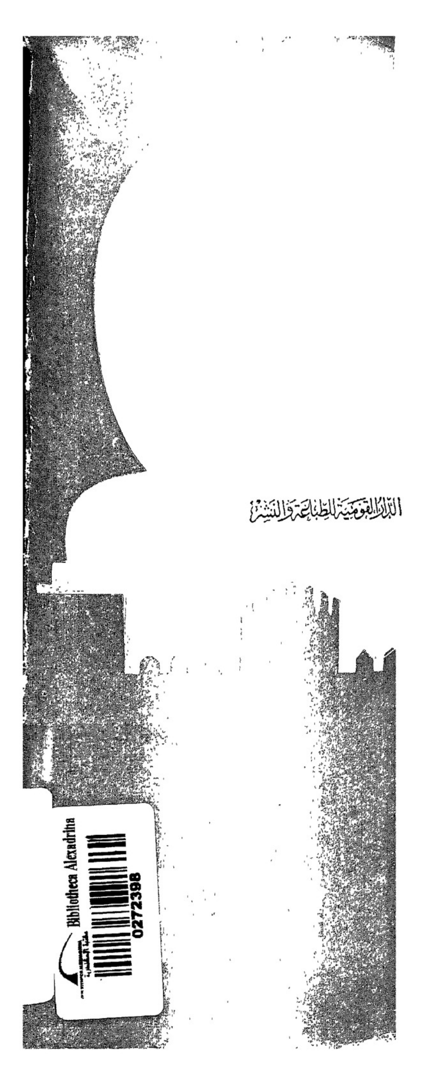
هذه قصـــة بطولة امرأة مجهولة ، فى حرب الريف المغربى ، وما أكثر الابطال المجهولين فى الثورات والحروب ...

لقد وصلت رسالة عبد الكريم الى أخيه بفضــــل تلك المرأة التى لا يعرف اسمها أحد !

فهرس



الدار القومية للطباعة والنشر



الدار القومية للطباعة والنشر